وظائف شهر رمضان المعظم

وفيه مجالس:

المجلس الأول
في فضل الصيام

ثبتَ[1] في «الصحيحين»[2] عن أبي هريرةَ ـ رضيَ الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: «كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ له؛ الحسنَةُ بعشْرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ، قال الله عزَّ وجلَّ: إلاَّ الصِّيامَ فإنَّه لي وأنا أجزي به، إنَّه تَرَكَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجلي. للصَّائمِ فرحتان: فَرْحَةٌ عند فطرِه، وفَرْحَةٌ عندَ لِقاءِ ربِّهِ، ولَخَلُوفُ فَمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المِسْكِ». وفي رواية «كلُّ عَمَلِ آبنِ آدمَ له إلاَّ الصِّيامَ فإنَّه لي». وفي رواية للبخاري «لكلِّ عملٍ كَفَّارةٌ، والصَّوم لي وأنا أجزي به». وخرَّجه الإمامُ أحمدُ[3] مِن هذا الوجه، ولفظهُ: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له[4] كفارةٌ إلاَّ الصَّومَ، والصَّومُ لي، وأنا أَجْزِي به».

فعلى الرواية الأولى: يكون استثناءُ الصومِ من الأعمالِ المُضَاعَفَةِ، فتكونُ الأعمالُ كلُّها تُضاعَفُ بعَشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، إلاَّ الصيامَ فإنَّه لا ينحصِرُ تضعيفُه في هذا العدد، بل يُضاعِفُه اللهُ عزَّ وجلَّ أضعافاً كثيرةً بغير حَصْرِ عددٍ؛ فإنَّ الصيامَ مِن الصَّبرِ، وقد قال الله تعالى: ﴿إنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ

---

[1] لفظ «ثبت» لم يرد في آ، ش، ع. [2] أخرجه البخاري ٤/١٠٣ ـ ١١٠ رقم (١٨٩٤) في الصوم: باب فضل الصوم، ورقم (١٩٠٤) باب هل يقول: إني صائم إذا شتم، وفي اللباس، رقم (٥٩٢٧): باب ما يذكر في المسك، وفي التوحيد رقم (٧٩٤٢): باب قوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، ورقم (٧٥٣٨): باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربِّه؛ ومسلم رقم (١١٥١) في الصيام: باب حفظ اللسان، وباب فضل الصيام. وللحديث روايات متعددة انظرها في «جامع الأصول» ٩/٤٥٠ ـ ٤٥٣. [3] مسند أحمد ٢/٢٥٧ و ٢٧٣، ولم ترد فيه لفظة «كفارة». [4] لفظ «له» لم يرد في آ، ش، ع.

حِسَابٍ ﴾[1]. ولهذا وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سمَّى شهرَ رمضانَ شهرَ الصَّبر[2].

وفي حديث آخرَ عنه ﷺ، قال: «الصَّومُ نِصْفُ الصَّبْرِ». خرَّجه الترمذيُّ[3].

والصَّبْرُ ثلاثةُ أنواعٍ: صبرٌ على طاعةِ اللهِ، وصَبْرٌ عن محارِمِ اللهِ، وصَبْرٌ على أقدَارِ اللهِ المؤلمةِ. وتجتمعُ الثلاثة كلُّها[4] في الصوم؛ فإنَّ فيه صبراً على طاعةِ اللهِ، وصَبراً عمَّا حَرَّمَ اللهُ على الصَّائمِ منَ الشَّهواتِ، وصَبراً على ما يحصُلُ للصَّائمِ فيه من ألمِ الجوعِ والعطَشِ، وضعْفِ النفسِ وَالبدَنِ.

وهذا الألمُ الناشئُ مِن أعمالِ الطَّاعَاتِ يُثابُ عليه صاحبُه، كما قال الله تعالى في المجاهدين: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[5]. وفي حديثِ سلمانَ المرفوعِ الذي أخرَجَهُ ابنُ خُزيمةَ في «صحيحِهِ»[6] في فضلِ شهرِ رمضانَ «وهو شهرُ الصَّبرِ، والصَّبْرُ ثوابُه الجَنَّةُ». وفي الطبراني[7] عن ابنِ عُمَرَ مرفوعاً: «الصِّيامُ للّهِ لَا يَعْلَمُ ثَوابَ عملِه[8] إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ». ورُوي مرسلاً وهو أصحُّ.

واعلَمْ أَنَّ مضاعفَةَ الأجرِ للأعمال تكونُ بأسبابٍ؛ منها: شَرَفُ المكانِ المعمولِ فيه ذلك العملُ، كالحَرَمِ. ولذلك[9] تُضاعَفُ الصَّلاةُ في مسجدَيْ مكَّةَ والمدينةِ. كما

---

[1] سورة الزمر الآية ١٠. [2] من حديث طويل أخرجه أبو داود رقم (٢٤٢٨) في الصوم، باب في صوم أشهر الحرم؛ وابن ماجه رقم (١٧٤١) في الصيام، باب صيام أشهر الحرم؛ وفي الحديث مقال، وقد مضى تخريجه. [3] رقم (٣٥١٤) في الدعوات، باب رقم (٩٢) عن رجل من بني سليم؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «التسبيح نصف الميزان، والحمدُ لله تملؤه، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض، والصوم نصف الصبر، والطهور نصف الإيمان». قال الترمذي: هذا حديث حسن، وهوكما قال. [4] لفظ «كلها» زيادة من ش، ع، وفي آ: «وتجتمع كلها». [5] سورة التوبة الآية ١٢٠. [6] رقم (١٨٨٧) في الصيام، باب فضائل شهر رمضان، إن صح الخبر. وفي سنده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف، كما في التقريب. وفي حاشية التحقيق: قال البنا في «الفتح الرباني» ٩/٢٣٣: رواه ابن خزيمة في صحيحه، ثم قال: إن صح الخبر. [7] أورده المنذري في «الترغيب والترهيب» مطولاً ٢/٨٢ في الصوم عن ابن عمر، وفيه: «رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي. وهو في صحيح ابن حبان من حديث حريم بن فاتك بنحوه، لم يذكر فيه الصوم». [8] في الترغيب «عامله». [9] في آ، ش: «وكذلك».

ثبَتَ ذلك في الحديثِ الصحيحِ [1] عن النبيِّ ﷺ، قال: «صلاةٌ في مَسْجِدي هذا خيرٌ مِن ألفِ صَلاةٍ فيما سِواهُ مِنَ المساجدِ إلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ».

وفي رواية «فإنه أفضَلُ». وكذلك روي أنَّ الصِّيامَ يُضَاعَفُ بالحرَمِ. وفي سُنن ابنِ ماجه [2] بإسنادٍ ضعيفٍ، عن ابنِ عباسٍ مرفوعاً: «مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ بمكَّةَ فَصامَهُ وقَامَ منه ما تيسَّرَ كَتَبَ اللهُ له مائَةَ ألفِ شَهْرِ رَمَضانَ فيما سِواهُ»، وذَكَرَ له ثواباً كثيراً. **ومنها**: شرفُ الزمان، كشهر رمضانَ وعشر ذي الحجةِ. وفي حديثِ سلمانَ الفارسي المرفوعِ الذي أشرْنا إليه في فضل شهر رمضانَ «مَنْ تطوَّعَ [3] فيهِ بخَصْلَةٍ مِن خِصالِ الخَيْرِ كان كَمَنْ أدَّى فَريضَةً فيما سِواهُ، ومَنْ أدَّى فيه فريضَةً كان كمَنْ أدَّى سَبعينَ فريضةً فيما سِواهُ». وفي الترمذيّ [4] عن أنسٍ: «سئل النبيُّ ﷺ: أيُّ الصَّدَقةِ أفضَلُ؟ قال: صَدَقَةٌ في رَمَضَانَ». وفي الصحيحين [5] عن النبي ﷺ، قال: «عُمْرَةٌ في رمضانَ تَعْدِلُ حجَّةً» أو قال «حَجَّةً معي».

وَوَرَدَ في حديثٍ آخر: «إنَّ عَمَلَ الصَّائمِ مُضَاعَفٌ». وذكَرَ أبو بكر بن أبي مريمَ عن أشياخِه أنَّهم كانوا يقولون: إذا حَضَرَ شهرُ رَمَضانَ فانبسِطُوا فيه بالنَّفَقَةِ؛ فإنَّ النَّفَقَةَ فيه مُضَاعَفَةٌ كالنَّفقةِ في سبيلِ اللهِ، وتسبيحةٌ فيه أفضَلُ من ألفِ تسبيحةٍ في غيرِهِ.

---

[1] أخرجه البخاري رقم (١١٩٠) في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة؛ ومسلم رقم (١٣٩٤) في الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة. وللحديث روايات متعددة انظرها في «جامع الأصول» ٩/٢٨٤ - ٢٨٦. [2] رقم (٣١١٧) في المناسك، باب صيام شهر رمضان بمكة، وإسناده ضعيف لضعف عبد الرحيم بن زيد العَمِّيّ، وضعف أبيه زيد بن الحواري العَمِّي. وتمام الحديث: «وكتب له بكل يوم عتقَ رقبة، وكل ليلة عتقَ رقبة، وكل يوم حُملان فرسٍ في سبيل الله، وفي كل يوم حسنةً، وفي كل ليلةٍ حسنةً». [3] في صحيح ابن خزيمة «من تقرَّب». [4] رقم (٦٦٣) في الزكاة: باب ما جاء في فضل الصدقة، من حديث صدقة بن موسى، عن أنس. قال الترمذي: هذا حديث غريب، وصدقة بن موسى ليس عندهم بذاك القوي. ونصه فيه، عن أنس: «سئل النبي ﷺ: أي الصوم أفضل بعد رمضان؟ فقال: شعبان لتعظيم رمضان. قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: صدقة في رمضان». وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ٣/٣٧٧. [5] في آ، ش، ع: «وفي الصحيح». وهو قطعة من حديث طويل رواه البخاري ٣/٦٠٣ - ٦٠٥ في الحج، باب عمرة في رمضان، و ٤/٧٢ (١٨٦٣) باب حج النساء؛ ومسلم رقم (١٢٥٦) في الحج، باب فضل العمرة في رمضان.

وقال النَّخعيُّ: صومُ يومٍ من رَمَضَانَ أفضَلُ مِن ألفِ يومٍ، وتسبيحةٌ فيهِ أفضَلُ مِن ألفِ تسبيحةٍ، ورَكْعَةٌ فيه أفضَلُ مِن ألفِ رَكْعَةٍ.

فلمَّا كانَ الصِّيامُ في نفسِهِ مضاعفاً أجرُهُ بالنسبة إلى سائرِ الأعمالِ، كانَ صِيَامُ شهرِ رَمَضَانَ مُضاعَفاً على سائرِ الصِّيامِ؛ لِشرَفِ زَمَانِهِ، وكونِهِ هو الصَّومُ الذي فَرَضَهُ اللهُ على عبادِهِ، وجَعَلَ صيامَهُ أحَدَ أركانِ الإسلامِ التي بُنِي الإسلامُ عليها. وقد يُضاعَفُ الثَّوابُ بأَسبابٍ أُخَرَ؛ منها: شرفُ العامِلِ عندَ اللهِ وقُرْبُهُ منه، وكثرةُ تَقواهُ، كما ضُوعِفَ أجرُ هذه الأمَّةِ على أجورِ مَنْ قبلَهم مِن الأممِ، وأُعْطُوا كِفْلَيْن[1] مِنَ الأجْرِ.

وأمَّا على الروايةِ الثانية: فاستثناءُ الصِّيامِ من بينِ الأعمالِ يَرجعُ إلى أنَّ سائرَ الأعمالِ للعبادِ، والصِّيامُ اختصَّه اللهُ تعالَى لنفسِهِ من بينِ أعمالِ عبادِه، وأضافَه إليه. وسيأتي ذكرُ توجيه هذا الاختصاص إن شاء الله تعالى.

وأمَّا على الرواية الثالثة[2]: فالاستثناءُ يعودُ إلى التكفير بالأعمالِ، ومن أحسَنِ ما قيلَ في معنى ذلك: ما قالَه سفيانُ بنُ عُيينةَ رحمه الله، قال: هذا[3] من أجودِ الأحاديثِ وأحكمِهَا[4]، إذا كان يومُ القيامة يُحاسِبُ اللهُ عبدَهُ، ويُؤدَّى ما عليه من المظالم من سائر عملِه، حتى لا يبقَى إلَّا الصَّومُ، فيتحمَّلُ اللهُ عزَّ وجلَّ ما بقِيَ عليه مِن المظالم، ويُدْخِلُه بالصَّومِ الجنَّةَ. خرَّجَه البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمان»[5] وغيره. وعلى هذا فيكون المعنى أن الصِّيامَ للّهِ عزَّ وجلَّ، فلا سبيلَ لأحدٍ إلى أخذِ أجره من الصِّيامِ[6]، بل أجرُه مدَّخرٌ لصاحبِهِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وحينئذٍ فقد يُقالُ: إنَّ سائرَ الأعمالِ قدْ يُكفَّرُ بها ذنوبُ صاحبِها فلا يَبقى لها أجرٌ، فإنَّه رُوي أنَّه يُوازَنُ يومَ القيامةِ بين الحسناتِ والسيئاتِ، ويُقَصّ[7] بعضُهَا من بعضٍ، فإنْ بقِيَ من الحسناتِ حسنةٌ

---

[1] الكِفْل: الضِّعف. [2] في هامش ش: «وهي رواية البخاري: لكل عمل كفارة والصوم لي وأنا أجزي به». [3] أي حديث «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنَّه لي، وأنا أجزي به» [4] في ش، ع: «وأجلها» وما أثبته يوافق ما جاء في شعب الإيمان. [5] شعب الإيمان للبيهقي ٣/٢٩٥. [6] في آ، ش: «من الصائم». [7] في آ، ش، ع: «يقتص».

دَخَلَ بها صاحبُها الجنَّةَ. قاله سعيدُ بن جبيرٍ وغيرُه. وفيه حديثٌ مرفوعٌ خرَّجَه الحاكِمُ[1] من حديثِ ابنِ عباسٍ مرفوعاً، فيحتملُ أن يقالَ في الصوم: إنَّه لا يَسقُطُ ثوابُهُ بمقاصَّةٍ ولا غيرِها، بل يوفَّرُ أجرُه لصاحبِهِ حتَّى يدخُلَ الجنَّةَ، فيوفَّى أجرُه فيها.

وأمَّا قولُه: «فإنَّه لي»، فإنَّ اللهَ خَصَّ الصِّيامَ بإضافتِه إلى نفسِهِ دونَ سائرِ الأعمالِ، وقد كَثُر القولُ في معنى ذلك مِن الفقهاءِ والصُّوفية وغيرِهم، وذكَروا فيه وُجوهاً كثيرةً. ومِن أحسنِ ما ذُكِرَ فيه وجهان:

أحدُهما: أنَّ الصِّيامَ هو مُجَرَّدُ تَرْكِ حُظُوظِ النَّفْسِ وَشَهَواتِها الأصليةِ التي جُبِلتْ على الميل إليها للّهِ عزَّ وجلَّ، ولا يوجدُ ذلك في عبادةٍ أخرى غير الصِّيام؛ لأنَّ الإحرامَ إنَّما يُترَكُ فيه الجماعُ ودواعيهِ مِن الطِّيبِ دونَ سائرِ الشَّهواتِ؛ من الأكل والشربِ، وكذلك الاعْتِكافُ مع أنَّه تابعٌ للصِّيامِ.

وأمَّا الصَّلاةُ فإنَّه وإنْ تَرَكَ المصلِّي فيها جميعَ الشهواتِ إلَّا أنَّ مدَّتها لا تَطولُ، فلا يَجِدُ المصلِّي فَقْدَ الطَّعامِ والشَّرابِ في صلاتِه، بل قد نُهِيَ أنْ يُصلِّي ونفسُه تتوقُ[2] إلى طعامٍ[3] بحضرتِهِ حتى يتناولَ منه ما يُسكِّنُ نَفْسَه، ولهذا أُمِرَ بتقديمِ العَشاءِ على الصَّلاةِ.

وذهبتْ طائفةٌ مِن العلماء إلى إباحة شربِ الماءِ في صلاة التطوُّعِ، وكان ابنُ الزبير يفعلُه في صلاتِهِ، وهو روايةٌ عن الإمامِ أحمدَ، وهذا بخلافِ الصِّيامِ؛ فإنَّه يَسْتَوعِبُ النَّهارَ كُلَّه، فيجِدُ الصَّائمُ فَقْدَ هذه الشهواتِ، وتتوقُ[2] نفسُه إليها، خصوصاً في نهارِ الصَّيفِ؛ لشدَّةِ حرِّهِ وطُولِهِ، ولهذا رُوِي أنَّ مِن خِصالِ الإيمانِ الصَّومَ في الصَّيْفِ، وقَدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ رَمَضانَ في السَّفَرِ في شِدَّةِ الحرِّ دونَ أصحابِهِ، كما قال أبو الدَّرداء: «كُنَّا معَ النبيِّ ﷺ في رَمَضانَ في سَفَرٍ وأحدُنا يَضَعُ يَدَهُ على رأسِهِ مِن شِدَّةِ الحَرِّ، وما فينا صائمٌ إلَّا رسولُ الله ﷺ وعبدُ اللهِ بنُ رَواحة»[4].

---

[1] المستدرك ٤/٢٥٢. [2] في ب، ط: «تشوق». [3] في آ، ع: «إلى الطعام».
[4] أخرجه البخاري رقم (١٩٤٥) في الصوم: باب (٣٥). ومسلم رقم (١١٢٢) (١٠٨) و(١٠٩) في الصيام: باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.

وفي «الموطأ»[1] أنَّه ﷺ كان بالعَرْجِ يصُبُّ الماءَ على رأسِهِ وهو صائمٌ مِنَ العَطَشِ، أو من الحَرِّ. فإذا اشتدَّ توقانُ النَّفْسِ إلى ما تشتهيه مع قدرتِها عليه، ثم تركَتْهُ للَّهِ عزَّ وجلَّ في موضعٍ لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا اللهُ، كانَ ذلك دليلاً على صِحَّةِ الإيمانِ؛ فإنَّ الصَّائمَ يعلَمُ أنَّ له ربًّا يَطَّلِعُ عليه في خلوتِه، وقد حرَّمَ عليه أن يتناولَ شهواتِهِ المجبولِ على الميلِ إليها في الخلوةِ، فأطاعَ ربَّه، وامْتَثَلَ أمرَهُ، واجْتَنَبَ نهيَهُ خوفاً من عقابه، ورَغبةً في ثوابِهِ، فشكَرَ اللهُ تعالَى له ذلك، واخْتَصَّ لنفسِهِ عملَهُ هذا مِن بين سائرِ أعمالِهِ؛ ولهذا قال بعد ذلك: إنَّه إنَّما[2] تَرَكَ شهوتَهُ وطعامَهُ وشَرَابَهُ مِن أَجْلِي. قال بعضُ السَّلَف: طُوبَى لمن تَرَكَ شهوةً حاضِرَةً لموعدِ غيبٍ لم يَرَهُ.

لمَّا عَلِمَ المؤمنُ الصَّائمُ أنَّ رِضَا مَولاهُ في ترك شهواتِهِ، قدَّمَ رِضَا مولاهُ على هواهُ؛ فصارَتْ لَذَّتُه في تَرْكِ شهوتِهِ للَّهِ؛ لإيمانِهِ باطلاعِ اللهِ عليه[3]. وثوابُهُ وعقابُهُ أعظَمُ مِن لذَّتِهِ في تناولها في الخَلْوَةِ؛ إيثاراً لِرضا رَبِّه على هَوَى نفسِه، بل المؤمنُ يكرَهُ ذلك في خلوتِهِ أشدَّ مِن كراهتِهِ لألمِ الضَّرْبِ.

ولهذا أكثر المؤمنين لو ضُرِبَ على أن يُفطِرَ في شهرِ رَمَضَانَ لغيرِ عُذْرٍ لم يفعَلْ؛ لعلمه بكراهةِ[4] اللهِ لفطرِهِ في هذا الشهر، وهذا من علاماتِ الإيمانِ أن يكرَهَ المؤمنُ ما يلائمُهُ مِنْ شهواتِهِ إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ يكرهُهُ، فتصيرُ لَذَّتُه فيما يُرضي مَولاهُ وإنْ كان مخالفاً لِهواهُ، ويكونُ ألمُهُ فيما يَكرهُهُ مولاهُ، وإن كان موافقاً لِهواهُ، وإذا كانَ هذا فيما حُرِّمَ لِعَارِضِ الصَّومِ مِنَ الطَّعامِ والشرابِ ومباشرةِ النساءِ، فينبغي أنْ يتأكَّدَ ذلك فيما حُرِّمَ على الإطلاقِ، كالزِّنا، وشُرْبِ الخمر، وأخذِ الأموالِ أو الأعراضِ[5] بغيرِ حَقٍّ، وسَفْكِ الدِّماء المحرَّمَةِ؛ فإنَّ هذا يُسْخِطُ اللهَ على كلِّ حالٍ وفي كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فإذا كَمُلَ إيمانُ المؤمنِ كَرِهَ ذلكَ كُلَّه أعظَمَ مِن كراهتِهِ للقتلِ والضَّرْبِ.

---

[1] ١/٢٩٤ في الصيام: باب ما جاء في الصيام في السفر؛ وأبو داود رقم (٢٣٦٥) في الصوم: باب الصائم يصب عليه الماء من العطش، وإسناده صحيح. والعَرْج: موضع بين مكة والمدينة. [2] لفظ «إنما» لم يرد في آ، ش، ع. [3] لفظ «عليه» زيادة من نسخة (آ). [4] في ب، ط: «لكراهة». [5] في آ: «والأعراض».

ولهذا جَعَلَ النبيُّ ﷺ من علاماتِ وُجودِ حَلاوةِ الإيمانِ: أَنْ يَكْرَهَ أنْ يَرجِعَ إلى الكُفْرِ بعدَ أنْ[1] أنقذَهُ اللهُ، كما يَكرَهُ أَنْ يُلْقَى في النَّارِ[2].

وقال يوسفُ عليه السلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إليه﴾[3].

سئل ذو النون المصري[4]: مَتَى أُحِبُّ رَبِّي؟ قال: إذا كانَ ما يكرَهُهُ أمَرَّ عندَكَ مِنَ الصَّبْرِ. وقال غيرُه: ليسَ مِن أعلامِ المحبَّةِ أن تحِبَّ ما يكرهُهُ حبيبُكَ. وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَمشي على العَوائدِ دونَ ما يوجبُهُ الإيمانُ ويقتضيه، فلهذا كثيرٌ منهم لو ضُرِبَ ما أفطَرَ في رَمَضَانَ لغيرِ عُذْرٍ. ومِن جُهَّالِهم مَنْ لا يُفطِرُ لِعُذْرٍ ولو تَضَرَّرَ بالصَّوْمِ، مع أنَّ اللهَ يُحِبُّ منه أن يَقبَلَ رُخصَتَهُ، جَرْياً منه على العادةِ، وقد اعْتَادَ مع ذلك ما حرَّم[5] اللهُ مِن الزِّنا وشربِ الخمرِ وأخذِ الأموالِ والأعراضِ أو الدِّماءِ بغيرِ حقٍّ، فهذا يَجْرِي على عوائِدِه في ذلك كُلِّه لا على مُقْتَضَى الإيمانِ، ومَنْ عَمِلَ بمقْتَضَى الإيمانِ صَارَتْ لَذَّتُه في مُصَابَرَةِ نفسِهِ عمَّا تَميلُ نفسُه إليه إذا كان فيه سَخَطُ اللهِ، ورُبَّما يَرْتَقِي إلى أن يَكْرَهَ جميعَ ما يكرهُهُ اللهُ منهُ، وينفُرُ منه وإنْ كان ملائماً للنفوسِ، كما قيل:

إن كـان رِضـاكُمُ في سَهَـرِي ... فَسَـلامُ اللهِ عـلى وَسَـنِي[6]

[وقال اخر[7]:

* فما لِجُرْحٍ إذا أرضاكُمُ ألَمُ *][8]

---

[1] في آ: «بعد إذ». [2] من حديث رواه المصنف بالمعنى؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَد بهنَّ طعم الإيمان: من كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سُواهما، ومن أحبَّ عبداً لا يُحبُّه إلَّا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر، بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلْقَى في النار». أخرجه البخاري ١/٦٠ - ٦٢ في الإيمان: باب حلاوة الإيمان، وباب من كره أن يعود في الكفر، وفي الأدب: باب الحب في الله، وفي الإكراه: باب من اختار القتل والضرب والهوان على الكفر. وأخرجه مسلم رقم (٤٣) في الإيمان: باب بيان خصال الإيمان. والترمذي رقم (٢٩٢٦) في الإيمان، باب رقم (١٠). والنسائي ٨/٩٦ في الإيمان: باب حلاوة الإيمان. وابن ماجه رقم (٤٠٣٣) في الفتن: باب الصبر على البلاء. [3] سورة يوسف الآية ٣٣. [4] لفظ «المصري» لم يرد في آ، ش، ع. وهو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أصله من النوبة، أحد الزهاد العبَّاد المشهورين، كان له فصاحة وحكمة وشعر، توفي سنة ٢٤٥ هـ. [5] في آ، ش: «ما حرَّمه». [6] الوَسَن: النعاس.

[7] عجز بيت للمتنبي في ديوانه ٢/٢٦٣، وتمامه:

إن كـان سـرَّكُـمُ مـا قـال حـاسِـدُنـا ... فـمـا لِـجُـرْحٍ إذا أرضـاكُـمُ أَلَـمُ

[8] ما بين قوسين زيادة لم ترد في ب، ط.

وقال آخر:

عَـذابُـهُ فـيـكَ عَـذْبُ وبُـعْـدُهُ فـيـك قُـرْبُ
وَأَنْـتَ عـنـدِي كَـرُوحِـي بَـلْ أَنْـتَ مِـنـهـا أَحَـبُّ
حَـسْـبـي مِـنَ الـحُـبِّ أَنِّـي لِـمَـا تُـحِـبُّ أُحِـبُّ

الوجه الثاني: أنَّ الصِّيامَ سِرٌّ بينَ العبدِ وربِّه لا يَطَّلِعُ عليه غيرُه؛ لأنَّه مُركَّبٌ من نِيَّةٍ باطنةٍ لا يطَّلِعُ عليها إلَّا اللهُ، وتركٍ لتناولِ الشهواتِ التي يُستخفَى بتناولِها في العادة، ولذلك قيلَ: لا تكتبه الحَفَظَةُ. وقيل: إنَّه ليس فيه رياءٌ، كذا قاله الإمامُ أحمدُ وغيرُه؛ وفيه حديثٌ مرفوعٌ مرسَلٌ. وهذا الوجهُ اختيارُ أبي عبيدٍ[1] وغيرِه. وقد يَرجعُ إلى الأول؛ فإنَّ مَنْ تَرَكَ ما تَدعُوه نفسُه إليه للّهِ عزَّ وجلَّ حيثُ لا يطَّلِعُ عليه غيرُ مَنْ أَمَرَهُ وَنَهَاهُ، دلَّ على صحَّةِ إيمانِه. واللهُ تعالَى يُحِبُّ مِن عبادِهِ أنْ يعَامِلُوه سرًّا بينَهم وبينَه، وأهلُ محبَّتِه يُحبُّون أنْ يُعامِلُوه سرًّا بينَهم وبينَه، بحيثُ لا يطَّلِعُ على معاملتِهم إيَّاه سواهُ، حتَّى كان بعضُهم يَوَدُّ لو تمكَّنَ مِن عبادةٍ لا تشعُرُ بها الملائكةُ الحَفَظَةُ. وقال بعضهم لمَّا أُطِّلِعَ على بعضِ سرائرِهِ: إنَّما كانت تَطيبُ الحياةُ لمَّا كانَتِ المعامَلَةُ بيني وبينَه سِرًّا، ثم دَعَا لنفسِهِ بالموتِ فماتَ. المحبُّون يَغارُون مِن اطلاعِ الأغيارِ[2] على الأسرارِ التي بينَهم وبينَ مَنْ يحبُّهم ويحبُّونه.

نَسِيمَ صَبَا نَجْدٍ متَى جِئْتَ حـامِـلًا تحيَّتَهُم فـاَطْـوِ الحَـدِيثَ عَنِ الـرَّكْبِ
وَلا تُـذِعِ السِّـرَّ المَصُـونَ فـإنَّـني أَغَارُ عَلَى ذِكْرِ الأحبَّـةِ مِنْ صَحْبِي[3]

وقولُه «تَرَكَ شهوتَه وطعامَهُ وشَرَابَه مِن أجلي» فيه إشارةٌ إلى المعنَى الذي ذكرناه، وأنَّ الصائمَ تقرَّبَ إلى الله بتركِ ما تشتهيه نفسُهُ مِن الطعامِ والشرابِ والنِّكاحِ، وهذه أعظمُ شهواتِ النفسِ. وفي التقرُّبِ بتركِ هذه الشهواتِ بالصيامِ فوائد:

منها: **كسرُ النفْس**؛ فإنَّ الشِّبَعَ والرِّيَّ ومباشَرَةَ النِّساءِ تحمِلُ النفسَ على الأَشَرِ[4] وَالبَطَرِ والغَفْلَةِ.

---

[1] في آ، ع: «أبي عبيدة». [2] الأغيار: جمع غَيْر. [3] في ب، ط: «من صحب». [4] الأَشَر: البطر.

ومنها: تَخلِّي القلبِ للفكرِ والذِّكْرِ؛ فإنَّ تناولَ هذه الشهوات قد تُقسِّي القَلْبَ وتُعمِيهِ، وتَحُولُ بينَ العبدِ وبينَ الذِّكْرِ والفِكْرِ، وتستدعِي الغَفْلَةَ. وخُلوُّ الباطِنِ مِن الطعامِ والشرابِ يُنوِّرُ القلبَ ويُوجبُ رِقَّتَه ويُزيلُ قَسْوَتَه ويُخليه للذكرِ والفكرِ.

ومنها: أنَّ الغنِيَّ يَعرِفُ قَدْرَ نعمةِ اللهِ عليه بإقْدارِهِ له على ما منعه كثيراً من الفقراءِ من فُضُولِ الطَّعامِ والشرابِ والنِّكاحِ؛ فإنَّه بامتناعِهِ من ذلك في وقتٍ مخصوصٍ وحصُولِ المشقَّةِ له بذلك، يتذكَّرُ بهِ مَنْ مُنِعَ ذلك[1] على الإطلاق، فيوجبُ له ذلك شُكرَ نِعمةِ اللهِ عليه بالغِنَى، ويَدعُوه إلى رحمةِ أخيه المحتاج ومُواساتِه بما يُمكن مِن ذلك.

ومنها: أنَّ الصِّيامَ يُضيِّقُ مَجارِيَ الدَّمِ التي هي مَجاري الشيطانِ مِن ابنِ آدمَ؛ فإنَّ الشيطانَ يَجري من ابنِ آدمَ مجرَى الدَّمِ، فتسكنُ بالصِّيامِ وَساوسُ الشَّيطانِ، وتنكسِرُ سَوْرَةُ[2] الشهوةِ والغَضَبِ، ولهذا جَعَلَ النبيُّ ﷺ الصَّوْمَ وِجاءً[3]؛ لقطْعِهِ عن شهوةِ النِّكاحِ.

واعْلَمْ أنَّه لا يَتِمُّ التقرُّبُ إلى الله تعالى بترْكِ هذه الشهواتِ المباحةِ في غيرِ حالةِ الصِّيامِ إلا بعدَ التقرُّبِ إليه بتركِ ما حرَّمه[4] اللهُ في كُلِّ حالٍ؛ مِن الكذبِ والظلمِ والعدوانِ على الناس في دمائهم وأموالِهم وأعراضِهم، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليسَ للّهِ حاجةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرَابَهُ». خرَّجه البخاريُّ[5]. وفي حديث آخرَ: «ليسَ الصِّيامُ مِنَ الطَّعامِ والشرابِ، إنَّما الصِّيام من

---

[1] في ب، ع، ط: «من منع من ذلك». [2] في آ: «ثورة». وثورة الغضب: وُثُوبه. [3] وَجأ الفحلَ وجاءً: دقَّ عروق خُصيتَيْه بين حجرين ولم يُخْرجهما، أو رضَّهما حتى تنفضخا، فيكون شبيهاً بالخِصاء. وأراد بالحديث: أن الصوم يقطع النِّكاح كما يقطعه الوجاء، أو أنه يقطع شهوة الجماع. وقد أخرجه البخاري ٤/١١٩ (١٩٠٥) في الصوم: باب الصوم لمن خاف على نفسه العُزْبَةَ، وفي النكاح: باب قول النبي ﷺ: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، وباب من لم يستطع الباءة فليصم. ورواه مسلم رقم (١٤٠٠) في النكاح: باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم. [4] في ب، ع، ط: «ما حرم الله». [5] أخرجه البخاري ٤/١١٦، ١١٧ (١٩٠٣) في الصوم: باب من لم يدع قول الزُّور والعمل به في الصوم، وفي الأدب: باب قول الله تعالى: ﴿واجتنبوا قول الزور﴾. وأخرجه أبو داود رقم (٢٣٦٢) في الصوم: باب الغيبة للصائم؛ والترمذي رقم (٧٠٧) في الصوم: باب ما جاء في التشديد في الغيبة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

اللغو والرَّفث». قال الحافظ أبو موسى المديني: هو على شرط مسلم.

قال بعضُ السَّلف: أهونُ الصِّيام تركُ الشراب والطعام. وقال جابر: إذا صُمْتَ فلْيَصُمْ سَمْعُكَ وَبَصَرُكَ ولسانُك عن الكذب والمحارم، وَدَعْ أَذَى الجار، وليكُنْ عليك وقارٌ وسكينةٌ يومَ صومِكَ، ولا تجعَلْ يومَ صومِك ويومَ فِطْرِك سواءً.

إذا لم يكن في السَّمع منِّي تصاونٌ ... وفي بَصَري غضٌّ وفي منطِقي صَمْتُ
فحظِّي إذاً مِنْ صَوْمِيَ الجُوعُ والظَّما ... فإنْ قلْتُ إنِّي صُمْتُ يومي فما صُمْتُ

وقال النبيُّ ﷺ: «ربَّ صائمٍ حظُّه مِن صيامِهِ الجوع والعطشُ، ورُبَّ قائمٍ حظُّه من قيامِهِ السَّهَرُ»[1]. وسِرُّ هذا أنَّ التقرُّب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلَّا بعد التقرُّب إليه بترك المحرَّمات، فمن ارتكب المحرَّمات ثم تقرَّب بترك المباحات، كان بمثابة من يتركُ الفرائض ويتقرَّبُ بالنوافل، وإن كان صومُه مجزئاً عندَ الجمهور بحيث لا يؤمَرُ بإعادته؛ لأنَّ العملَ إنَّما يبطُلُ بارتكاب ما نُهِي عنه فيه لخصوصه، دون ارتكاب ما نُهي عنه لغير معنىً يختَصُّ به. هذا هو أصلُ جمهور العلماءِ.

وفي مسند الإمام أحمد[2]: إنَّ آمْرَأتين صامتا في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ فكادتا أَنْ تموتا من العَطَش، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فأعرض، ثم ذُكِرتا له فَدَعَاهُما فأَمَرَهُما أن يتقيآ، فقاءَتا مِلْءَ قَدَحٍ قَيْحاً ودماً وصَديداً ولحماً عَبيطاً[3]. فقال النبي ﷺ: «إنَّ هاتين صامتا عمَّا أحَلَّ الله لهما، وأفطرتا على ما حرَّم الله عليهما؛ جلسَتْ إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا يأكُلانِ لُحومَ النَّاسِ».

ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ ورد في القرآن بعدَ ذِكْر تحريم الطعام والشَّراب على الصَّائم بالنَّهار ذِكْرُ تحريم أكل أموالِ الناس بالباطل[4]؛ فإنَّ تحريم هذا عامٌّ في كُلِّ

---

[1] رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٢/٣٧٣، وابن ماجه رقم (١٦٩٠) في الصيام: باب ماجاء في الغيبة والرفث للصائم، عن أبي هريرة، وإسناده ضعيف، لضعف أسامة بن زيد العدوي. [2] مسند أحمد ٥/٤٣١. [3] اللحم العبيط: الطَّري غير النَّضيج. وفي هامش نسخة (ب) ما نصه: قال الطبري: الدم العبيط: الذي لا يخالطه شيء. [4] راجع الآيات ١٨٣ ـ ١٨٨ من سورة البقرة.

زمانٍ ومكانٍ، بخلاف الطعام والشراب، فكان إشارةً إلى أنَّ مَنِ امتثَلَ أمْرَ الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه، فليمتثل أمره في اجتناب أكلِ الأموال بالباطل؛ فإنَّه محرَّم بكلِّ حالٍ لا يباح في وقتٍ مِن الأوقات.

وقوله ﷺ «وللصَّائم فَرْحَتان: فرحة عند فِطْره، وفَرْحة عند لقاء رَبِّه»: **أمَّا فَرْحَةُ الصَّائم عند فطرِهِ** فإن النفوس مجبُولةٌ على الميل إلى ما يلائمها من مطعَمٍ ومشربٍ ومنكحٍ، فإذا مُنِعَتْ من ذلك في وقتٍ من الأوقات، ثم أُبِيحَ لها في وقتٍ آخر، فرِحَتْ بإباحة ما مُنِعت منه، خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه؛ فإنَّ النفوسَ تفرحُ بذلك طَبْعاً، فإن كان ذلك محبوباً للّه كان محبوباً شَرْعاً. والصَّائمُ عند فطره كذلك، فكما أنَّ الله تعالى حرَّمَ على الصَّائم في نهارِ الصِّيام تناوُلَ هذه الشهواتِ، فقد أذِنَ له فيها في ليل الصِّيام، بل أحَبَّ منه المبادَرَةَ إلى تناولها في أوَّلِ الليل وآخِرِه، فأحَبُّ عِبادِهِ إليه أعجلُهم فِطراً، واللهُ وملائكتُه يُصلُّون على المتسحِّرين.

فالصَّائم تَرَكَ شهواتِهِ للّه بالنَّهار تقرُّباً إليه وطاعةً له؛ وبادرَ إليها في اللَّيل تقرُّباً إلى الله وطاعةً له، فما تَرَكَها إلَّا بأمرِ رَبِّه، ولا عادَ إليها إلَّا بأمر رَبِّه؛ فهو مُطيعٌ له في الحالين. ولهذا نُهِيَ عن الوِصَال في الصِّيام، فإذا بادر الصَّائم إلى الفطر تقرُّباً إلى مولاه، وأكَلَ وشرِبَ وحمِدَ الله؛ فإنَّه يُرجى له المغفرةُ أو بلوغُ الرِّضوان بذلك.

وفي الحديث: «إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنْ عَبْدِه أن[1] يأكُلَ الأَكْلَةَ فيحمَده عليها، ويشرَبَ الشَّرْبَةَ فيحمَدَه عليها»[2]. وربَّما استجيبَ دُعاؤه عند ذلك، كما جاء[3] في الحديث المرفوع الذي خرَّجه ابنُ ماجه[4]: «إنَّ للصَّائم عند فِطْره دعوةً ما تُردُّ». وإن نوى بأكْلِه وشرْبِه تقويةَ بدنه على القيام والصِّيام، كان مُثاباً على ذلك. كما أنه إذا نَوَى بنومه في الليل والنَّهار التقوِّي على العمَل، كان نومُه عِبادةً.

---

[1] لفظ «أن» سقط من آ، ش، ع. [2] أخرجه مسلم رقم (٢٧٣٤) في الذكر والدعاء: باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب؛ والترمذي رقم (١٨١٧) في الأطعمة: باب ما جاء في الحمد إذا فرغ من الطعام. [3] لفظ «جاء» زيادة من ب، ط. [4] رقم (١٧٥٣) في الصيام: باب الصائم لا ترد دعوته؛ وإسناده صحيح.

وفي حديثٍ مرفوعٍ: «نومُ الصَّائم عبادةٌ»[1]. قالت حفصةُ بنتُ سِيرينَ: قال أبو العالية: «الصَّائم في عبادَةٍ ما لم يغتَبْ أحداً وإن كان نائماً على فراشه»[2]. قال: وكانت حفصة تقول: «يا حبَّذا عبادةٌ وأنا نائمة على فراشي». خرَّجه عبدُ الرزاق.

فالصَّائم في ليله ونهاره في عبادَةٍ، ويُستجابُ دعاؤه في صيامه وعند فطره. فهو في نهاره صائمٌ صابرٌ؛ وفي ليله طاعمٌ شاكرٌ.

وفي الحديث الذي خرَّجه الترمذي[3] وغيرُهُ: «الطَّاعِمُ الشَّاكرُ بمنزلة الصَّائم الصَّابر».

ومَن فهِمَ هذا الذي أشرنا إليه لم يتوقَّفْ في معنَى فَرَحِ الصَّائم عندَ فِطْره؛ فإنَّ فِطْرَهُ على الوجه المشار إليه مِن فضلِ الله ورحمتِه، فيدخُل في قول الله تعالى: ﴿قُلْ بفضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِه فبذلِكَ فلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ ممَّا يَجْمَعُون﴾[4]. ولكنْ شرطُ ذلك أن يكونَ فِطرُه على حلالٍ، فإن كان فطرُهُ على حرامٍ كان ممَّن صام عمَّا أحلَّ الله، وأفطَرَ على ما حرَّمَ اللهُ، ولم يُستجَبْ له دعاءٌ، كما قال النبي ﷺ في الذي يُطيلُ

---

[1] أورده السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٩٢٩٣) وعزاه إلى البيهقي في «شعب الإيمان» عن عبد الله بن أبي أوفى، ورمز له بالضعف. وذكره القاري في «الأسرار المرفوعة» ص ٣٧٤: وقال: «رواه البيهقي بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أوفى»، وكذا الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» ١٧/٦ رقم (٥٩٨٤). وفي الحلية ٨٣/٥ عن عبد الله بن مسعود. وتمامه: «نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور». [2] أورد السيوطي في «الجامع الصغير» حديثين رقم (٥١٢٥) و (٥١٢٦) وعزاهما إلى الديلمي في «مسند الفردوس»، وهما برقم (٣٨٢٤) و (٣٨٢٥)، ورمز لهما بالضعف. الحديث الأول عن أنس بن مالك: «الصائم في عبادة وإن كان نائماً على فراشه»، رمز له المناوي في «فيض القدير» رقم (٥١٢٥) بالضعف، وقال: «فيه محمد بن أحمد بن سهيل، قال الذهبي في الضعفاء، قال ابن عدي: ممن يضع الحديث». والحديث الثاني عن أبي هريرة: «الصائم في عبادة ما لم يغتب مسلماً أو يؤذه». ورمز له المناوي (٥١٢٦) أيضاً بالضعف، قال: «وفيه عبد الرحيم بن هارون، قال الذهبي في الضعفاء: قال الدارقطني: يكذب. وفيه الحسن بن منصور، قال ابن الجوزي في العلل: غير معروف الحال، وقال ابن عدي: حديث منكر. وأوردهما الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» ٢٧٨/٣ و ٢٧٩. [3] أخرجه الترمذي رقم (٢٤٨٨) في صفة القيامة: باب الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر، وحسنه. وأخرجه ابن ماجه رقم (١٧٦٩) في الصيام: باب فيمن قال: الطاعم الشاكر الصائم الصابر. ورواه أحمد في «المسند» ٢٨٣/٢ و ٢٨٩ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. [4] سورة يونس الآية ٥٨.

السَّفَرَ «يَمُدُّ يَدَيْه إلى السَّماء: يا ربِّ! يا ربِّ! ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلك»[1].

وأمَّا فرحُهُ عند لقاءِ رَبِّه، فيما يجده عند اللهِ من ثوابِ الصِّيام مُدَّخراً، فيجدُه أحوجَ ما كان إليه، كما قال الله تعالى: ﴿ وما تُقَدِّموا لأنفُسِكُم مِن خيرٍ تجِدُوه عندَ اللهِ هُوَ خَيراً وأعظَمَ أَجْراً ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضراً ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يرَهْ ﴾[4].

وقد تقدَّم قولُ ابن عيينة أنَّ ثوابَ الصائم[5] لا يأخذه الغُرماء في المظالم بل يَدَّخِرُهُ الله عندَه للصَّائم حتى يُدخِلَهُ به الجنَّةَ. وفي «المسند»[6] عن عقبةَ بـن عامرٍ، عن النبي ﷺ، قال: «ليس من عملِ يومٍ إلَّا يُختم عليه».

وعن عيسى عليه السلام، قال: إنَّ هذا الليلَ والنَّهار خزانتان، فانظروا ما تضعون فيهما. فالأيام خزائنُ للناس ممتلئةٌ بما خزنُوه فيها من خيرٍ وشَرٍّ. وفي يوم القيامة تفتح هذه الخزائن لأهلها؛ فالمتقون يجدون في خزائنهم العِزَّ والكرامة، والمذنبون يجدون في خزائنهم الحسرةَ والنَّدامة. الصائمون على طبقتين:

إحداهما: مَن تركَ طعامَهُ وشرابَهُ وشهوتَه للّه تعالى، يرجو عندَه عوضَ ذلك في الجنة، فهذا قد تاجَرَ مَعَ اللهِ وعامَلَهُ، واللهُ تعالى لا يُضيع أَجْرَ من أحسَنَ عملاً[7]، ولا يخيبُ معه مَن عامله، بل يربح عليه أعظمَ الرِّبْح. وقال رسولُ الله ﷺ لرجُلٍ:

---

[1] أخرجه مسلم رقم (١٠١٥) في الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، والترمذي رقم (٢٩٩٢) في التفسير: باب ومن سورة البقرة. وقوله: «يطيل السفر»، قال النووي في شرح مسلم: «معناه ـ والله أعلم ـ أنه يطيل السفر في وجوه الطاعات، كحج وزيارة مستحبة وصلة رحم وغير ذلك». [2] سورة المزمل الآية ٢٠. [3] سورة آل عمران الآية ٣٠. [4] سورة الزلزلة الآية ٧. [5] في ب، ط: «الصيام». [6] ١٤٦/٤. ورواه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٨٤/١٧ والحاكم في «المستدرك» ٣٠٩/٤ على شرط الشيخين. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣٠٣/٥ وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام». وتمامه: «فإذا مرض المؤمن، قالت الملائكة: يا ربنا! عبدك فلان قد حبسته، فيقول الرب: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت». والمراد بالحبس: المنع من عمل الطاعة بالمرض. [7] في قوله تعالى من سورة الكهف الآية ٣٠ ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً ﴾.

«إنَّك لن تدعَ شيئاً اتِّقاءَ اللهِ إلاَّ آتاك اللهُ خيراً منه». خرَّجه الإمام أحمد[1]. فهذا الصَّائمُ يُعطَى في الجنة ما شاء اللهُ من طعامٍ وشرابٍ ونساءٍ، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بما أسلَفْتُمْ في الأيَّام الخالية﴾[2]. قال مجاهد وغيرُه: نزلَتْ في الصائمين.

قال يعقوب بن يوسُفَ الحنفي: بلغنا أنَّ الله تعالى يقول لأوليائه يومَ القيامة: يا أوليائي، طالما نظرْتُ إليكم في الدُّنيا وقد قلَصَتْ شفاهُكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وخفقت[3] بطونُكم؛ كونوا اليومَ في نعيمكم، وتعاطَوا الكأسَ فيما بينكم، و﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بما أسلَفْتُم في الأيَّام الخالية﴾. وقال الحسن: تقولُ الحوراءُ لولي الله وهو متكىء معها على نهر العَسَلِ تُعاطيه الكأسَ: إنَّ الله نظر إليكَ في يومٍ صائفٍ بعيدٍ ما بين الطرفين، وأنت في ظمأٍ هاجرةٍ من جهدِ العطشِ، فباهَى بك الملائكةَ، وقال: انظروا إلى عبدي تَرَكَ زوجته وشهوتَه ولذَّتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ من أجلي، رغبةً فيما عندي، اشْهَدُوا أنِّي قد غفرتُ لَهُ؛ فغفر لك يومئذٍ وزوجنِيكَ.

وفي «الصحيحين»[4] عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «إنَّ في الجنَّة باباً يقال له: الرَّيَّانُ، يدخُلُ منه الصَّائمون، لا يدخُلُ منه غَيْرُهُم». وفي رواية: «فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ». وفي رواية: «مَنْ دَخَلَ منه شَرِبَ، ومن شرِبَ لم يَظْمَأْ أبداً». وفي حديث عبد الرحمٰن بن سَمُرَةَ، عن النبي ﷺ في منامه الطويل، قال: «ورأيتُ رجلاً من أمَّتي يَلْهَثُ عَطَشاً، كلَّما ورد حَوْضاً مُنِعَ منه[5]، فجاءهُ صِيامُ رَمَضَانَ، فسقاه وأرواه». خرَّجه الطبراني[6] وغيرُه. وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادٍ فيه ضعف، عن أنسٍ مرفوعاً: «الصَّائمون يُنفَخُ

---

[1] مسند أحمد ٥/٧٩. [2] سورة الحاقة الآية ٢٤. [3] في ط: «وجفت». [4] أخرجه البخاري رقم (١٨٩٦) في الصوم: باب الرَّيان للصائمين، وفي بدء الخلق رقم (٣٢٥٧): باب صفة أبواب الجنة. ومسلم رقم (١١٥٢) في الصيام: باب فضل الصيام. والترمذي رقم (٧٦٥) في الصوم: باب ما جاء في فضل الصوم. والنسائي ٤/١٦٨ في الصوم: باب فضل الصيام. [5] لفظ «منه» لم يرد في آ، ش، ع. [6] قطعة من حديث طويل ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/١٧٩، وقال: «رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما سليمان بن أحمد الواسطي، وفي الآخر خالد بن عبد الرحمٰن المخزومي، وكلاهما ضعيف». وانظر «إتحاف السادة المتقين» ٨/١١٩.

من أفواههم ريحُ المِسْكِ، ويوضَعُ لهم مائدةٌ تحت العرش؛ يأكلون منها والناسُ في الحساب»[1].

وعن أنس موقوفاً[2]: «إن للّه مائدةً لم تَرَ مثلَها عينٌ، ولم تسمَعْ أذُنٌ، ولا خَطَرَ على قلب بشرٍ، لا يقعدُ عليها إلاَّ الصَّائمون».

وعن بعض السلف، قال: بلغنا أنه يوضَعُ للصُّوَّام مائدةٌ يأكلون عليها والناسُ في الحساب، فيقولون: يا رَبِّ! نحنُ نُحَاسَبُ وهم يأكلون؟! فيقال: إنَّهم طالما صامُوا وأفطرْتُم، وقاموا ونمتم. رأى بعضُهم بشرَ بنَ الحارث[3] في المنام وبين يديه مائدةٌ وهو يأكل، ويقال له: كُلْ يا مَن لم يأكُلْ، واشْرَبْ يا من لم يشرَبْ. كان بعضُ الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطع صوتُه فمات، فرئي[4] بعضُ أصحابه الصالحين في المنام فسئل عن حالِهِ، فضحك وأنشد:

قد كُسِي حُلَّةَ البهاءِ وطافَتْ ... بأباريقَ حولَهُ الخُدَّامُ
ثم حُلِّي وقِيلَ يا قارىء ارْقا ... فلَعَمْري لقد براك الصِّيامُ

اجتاز بعضُ العارِفين[5] بمنادٍ ينادي على السَّحور في رمضانَ: ياما خبأنا للصُّوَّام[6]! فتنبَّه بهذه الكلمة، وأكثَرَ من الصِّيام. رأى بعضُ العارفين في منامه كأنه أُدخِل الجنَّة، فسمع قائلاً يقول له: هل تذكر أنَّكَ صُمْتَ للّه يوماً قطّ؟ فقال: نعم! قال: فأخذتني صواني النِّثار[7] من الجنة. من ترك للّه في الدنيا طعاماً وشراباً وشهوةً مُدَّةً يسيرةً عوَّضَهُ اللهُ عندَهُ طعاماً وشراباً لا ينفَدُ، وأزواجاً لا يَمُتْنَ أبداً. شهرُ رمضان فيه يُزوَّجُ الصائمون. في الحديث[8]: «إنَّ الجنَّة لَتُزَخْرَفُ وتُنَجَّدُ من الحَوْلِ إلى

---

[1] الدر المنثور ١/١٨٢ نقلاً عن كتاب الجوع، لابن أبي الدنيا. [2] في ع: «مرفوعاً». [3] ويقال له بشر الحافي، ويكنى أبا نصر. من كبار الصالحين، له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من مرو، سكن بغداد، وتوفي فيها سنة ٢٢٧ هـ. والخبر بنحوه في «صفة الصفوة» ٢/٢٣٥.
[4] في ب، ط: «فرآه... فسأله». [5] في ب، ط: «الصالحين». [6] في آ، ش، ع: «للصائمين».
[7] النثار: ما نثر في حفلات السرور من حلوى وغيرها، ويقال: ما أصبت من النثار شيئاً. [8] ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٤٢ عن ابن عمر، مختصراً، وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار، وفيه الوليد بن الوليد القلانسي، وثقه أبو حاتم وضعفه جماعة».

الحَوْلِ لدخُولِ رمَضَان، فتقولُ الحورُ: يا ربِّ، اجْعَلْ لنا في هذا الشهر من عبادك أزواجاً تَقَرُّ أعيُننا بهم، وتَقَرُّ أعينُهم بنا». وفي حديثٍ آخَرَ: «إنَّ الحُورَ تُنَادِي[1] في شهر رَمَضَانَ: هل من خَاطبٍ إلى اللهِ فيزوِّجَهُ[2]؟.

مهورُ الحورِ العين[3] طولُ التهجُّد، وهو حاصلٌ في شهر رمضانَ أكثَرَ مِن غيره.

كان بعضُ الصالحين كثيرَ التهجُّد والصِّيامِ، فصَلَّى ليلةً في المسجد ودعا، فغلبته عيناهُ، فرأى في منامه جماعةً عَلِمَ أنَّهم لَيْسُوا من الآدميين، بأيديهم أطباقٌ عليها أرغفةٌ ببياض[4] الثلج، فوق كُلِّ رغيفٍ درٌّ كأمثال[5] الرُّمَّان، فقالوا: كُلْ، فقال: إنِّي أريدُ الصَّومَ. قالوا له: يأمُرُكَ صاحِبُ هذا البيت أن تأكلَ، قال: فأكلْتُ، وجعلْتُ آخذ ذلك الدُّرَّ لاحتملَهُ. فقالوا له: دعْهُ نَغرسه لك شجراً يُنبتُ لك خيراً من هذا. قال: أين؟ قالوا: في دارٍ لا تخرَبُ، وثمرٍ لا يتغيَّر، ومُلكٍ لا ينقطِعُ، وثيابٍ لا تبلَى. فيها رضوى، وعينا، وقرَّةُ أعينٍ، أزواجٌ رضياتٌ مَرضياتٌ راضياتٌ، لا يَغِرْنَ ولا يُغَرْن؛ فعليك بالانكماش فيما أنت، فإنما هي غَفْوَةٌ حتى ترتحلَ فتنزلَ[6] الدارَ. فما مكث بعدَ هذه الرؤيا إلَّا جمعتين حتَّى توفي، فرآه ليلةَ وفاتِه في المنام بعضُ أصحابه الذين حدَّثَهُم برؤياه وهو يقول: ألا تعجب من شجرٍ غُرسَ لي في يومِ حدثتك وقد حَمَلَ!؟ فقال له: ما حَمَلَ؟ قال: لا تسأل، لا يقدر أحدٌ على صفته. لم يُرَ مثلُ الكريم إذا حَلَّ به مطيع.

يا قوم! ألا خاطبٌ في هذا الشهر إلى الرحمان؟ ألا راغبٌ فيما أعَدَّهُ الله للطائعين في الجنان؟ ألا طالبٌ لما أخبر به من النَّعيم المقيم، مع أنَّه ليس الخبرُ كالعِيان؟

مَنْ يُرِدْ مُلْكَ الجِنانِ فلْيَدَعْ عنه التَّواني
ولْيَقُمْ في ظلمةِ الليلِ إلى نورِ القُرَانِ
ولْيَصِلْ صَوماً بصومٍ إنَّ هذا العيشَ فاني

---

[1] في ب، ط: «ينادي». [2] في ب، ط: «فتزوَّجه». [3] لفظ «العين» لم يرد في آ، ش، ع.
[4] في ع: «كبياض». [5] في آ، ش، ع: «أمثال». [6] في آ: «فتتركَ الدارَ».

إنَّـمـا الـعـيشُ جـوارُ الـلَّـــــهِ فـي دارِ الأمـانِ

الطبقة الثانية من الصائمين: مَن يصومُ في الدنيا عمَّا سِوى الله، فيحفظ الرأس وما حَوَى، ويحفظ البطنَ وما وَعَى، ويذكر الموتَ والبِلَى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا. فهذا عيدُ فطره يومَ لقاء رَبِّه وفرحه برؤيته.

أهلُ الخُصوصِ من الصُّوَّامِ صَومُهُمُ صـونُ اللسـانِ عن البُهتـان والكَـذِبِ
والعـارفـون وأهـلُ الأنسِ صـومُهُمُ صَـوْنُ القلوبِ عن الأغيـارِ والحُجُبِ

العارفون لا يسلِّيهم عن رؤية مولاهم قَصْرٌ، ولا يُروِّيهم دونَ مشاهدته نَهْرٌ؛ هِمَمُهُم أجلّ من ذلك.

كـبُـرَتْ هـمَّـةُ عـبـدٍ طَـمِـعَـتْ فـي أن تـراكَ
مَـنْ يَـصُـمْ عـن مُـفـطراتٍ فـصـيـامـي عـن[1] سِـواكَ

مَنْ صام عن شهواته في الدنيا، أدركَها غـداً في الجنَّة. ومَن صـام عمَّا سِوى الله، فعيدُه يوم لقائه، ﴿مَن كان يَرْجُوا لقاءَ الله، فإنَّ أجلَ اللهِ لآتٍ﴾[2].

وقـد صُمْتُ عن لـذَّاتِ دَهْـرِي كلِّهـا ويـومَ لـقـاكم ذاكَ فِـطْرُ صِيـامـي

رُؤي بِشرٌ[3] في المنام، فسئل عن حاله، فقال: عَلِمَ قِلَّة رَغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه. وقيل لبعضهم: أين نطلبُكَ في الآخرة؟ قال: في زمرة النَّاظرين إلى الله، قيل له: كيف علِمْتَ ذلك؟ قال: بِغضِّي[4] طرفي له عن كُلِّ محرَّمٍ، وبآجْتنابي فيه كُلَّ منكرٍ ومأثمٍ؛ وقد سألته أن يجعلَ جنَّتي النَّظرَ إليه.

يـا حبيبَ القُلوبِ مَنْ لي سِواكـا[5] آرْحَـمِ اليـومَ مُـذْنبـاً قـد أتـاكـا
ليس لي في الجنـان مـولايَ رأسٌ[6] غـيـرَ أنِّـي أريـدُهـا لأراكـا

---

[1] في ب، ط: «عمَّن سواك». [2] سورة العنكبوت الآية ٥. [3] هو بشر الحافي، وقد سبقت ترجمته. [4] في ب، ط: «بغَضِّ طرفي». [5] في ط: «ما لي سواكا». [6] في آ: «ليس لي في الجنان كل مرام»، وفي ش: «ليس لي في الجنان رأي ولكن»، وفي ع: «ليس لي في الجنان أحسن رأي»، وأثبت ما جاء في ب، ط.

يا معشر التائبين! صُوموا اليومَ عن شهواتِ الهوى؛ لتُدْرِكوا عِيْدَ الفطر يوم اللِّقاءِ، لا يَطُولَن عليكم الأمد[1] باستبطاء الأجل؛ فإنَّ معظم نهارِ الصِّيامِ قد ذهب، وعيدُ اللقاء قد اقترب.

إنَّ يـومـاً جـامـعـاً شَـمْـلِي بـهـم ذاك عـيـدي ليس لـي عيـد سِـوَاه

قوله: «ولَخُلُوفُ فمِ الصَّائم أطيبُ عند الله من ريح المِسْكِ»، خُلُوفُ الفم: رائحةُ ما يتصاعَدُ منه من الأبخرة؛ لخلوِّ المعِدَة من الطعامِ بالصِّيام. وهي رائحة مستكرهةٌ في مشام النَّاس في الدُّنيا، لكنَّها طيِّبَـةٌ عِندَ الله حيثُ كانت ناشئةً عن طاعته، وابتغاءِ مرضاته. كما أنَّ دَمَ الشهيد يجيء يومَ القيامة يَثْعَبُ[2] دماً، لونُه لونُ الدَّم، وريحُه ريحُ المِسْكِ. وبهذا استدلَّ من كرِه السِّواكَ للصَّائم، أو لم يستحبه من العلماء. وأوَّلُ مَن عَلِمناه استَدَلَّ بذلك عطاءُ بنُ أبي رَباحٍ. ورُوي عن أبي هريرة أنَّه استدَلَّ به، لكن من وَجْهٍ لا يثبت. وفي المسألة خلاف[3] مشهور بين العلماء. وإنَّما كَرِهَهُ مَن كرِهَهُ في آخرِ نهارِ الصَّوْم؛ لأنَّه وقتُ خُلُوِّ المعدةِ وتصاعُدِ الأبخرة. وهَلْ يدخُلُ وقتُ الكراهةِ بصلاة العصر، أو بزوال الشمس، أو بفعلِ صلاة الظهر في أوَّل وقتِها، على أقوالٍ ثلاثةٍ، والثالثُ هو المنصوص عن أحمدَ. وفي طيب ريح خُلُوفِ الصَّائم عندَ الله عزَّ وجلَّ معنيان:

أحدُهما: أنَّ الصِّيام لمَّا كان سِرًّا بين العبد وَرَبِّه في الدنيا، أظهرَهُ الله في الآخرة علانيةً للخَلْقِ؛ ليشتهر بذلك أهلُ الصِّيام، ويُعرفون بصيامهم بين الناس جزاءً لإخفائهم صِيَامَهُم في الدُّنيا. وروى أبو الشيخ الأصبهانيُّ بإسنادٍ فيه ضعفٌ، عن أنس مرفوعاً: «يخرُجُ الصَّائمونَ مِن قُبورهم يُعْرَفون بريحِ أَفْوَاهِهِمْ، أفواهُهُم أَطْيَبُ من ريح المِسْكِ»[4].

---

[1] في ب، ط: «الأمل». [2] في ط: «يثغب» بالغين، وهو تحريف. ومعنى يثعب: يجري.
[3] في آ، ش، ع: «اختلاف». [4] بعض حديث في كنز العمال ٨/٢٣٦٤٤؛ وعزاه إلى أبي الشيخ في الثواب والديلمي عن أنس. وتمامه: «إذا كان يوم القيامة يخرج الصوَّام من قبورهم يُعْرَفون بريح صيامهم، أفواههم أطيب من ريح المسك، يُلقَّون بالموائد والأباريق مختمة بالمسك، فيقال لهم: كلوا =

قال مكحولٌ: يروحُ أهلُ الجنَّة برائحةٍ، فيقولون: رَبَّنا، ما وجدْنا ريحاً منذُ دخلنا الجنَّة أطيبَ من هذه الريح. فيقال: هذه رائحةُ أفواه الصُّوَّام. وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا وتستنشق[1] قبل الآخرة، وهو نوعان:

أحدهما: ما يدركُ بالحواس الظاهِرَةِ. كان عبدُ الله بن غالب من العُبَّاد المجتهدين في الصَّلاة والصِّيام، فلمَّا دُفِنَ كان يفوح من تراب قبره رائحةُ المِسْكِ، فرؤي في المنام، فسُئل عن تلك الرائحة التي توجَدُ من قبره، فقال: تلك رائحةُ التِّلاوةِ والظمأِ[2].

والنوع الثاني: ما تَستنشِقه الأرواحُ والقلوبُ، فيوجِبُ ذلك للصَّائمين المخلصين المودَّةَ والمحبَّةَ في قلوب المؤمنين. وفي حديثِ الحارث الأَشْعَريِّ، عن النَّبي ﷺ: «أنَّ زكريَّا عليه السَّلام قال لبني إسرائيلَ: آمُرُكُم بالصِّيام، فإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رَجُلٍ في عصابةٍ، معه صُرَّةٌ فيها مِسْكٌ، فكلُّهم يُعجبه ريحُه، وإنَّ رِيحَ الصائم[3] أطيبُ عندَ الله من ريح المسك». خرَّجه الترمذي[4] وغيرُه.

= فقد جعتم، واشربوا فقد عطشتم، ذروا الناس يستريحوا فقد عييتم إذا استراح الناس، فيأكلون ويشربون والناس معلقون في الحساب في عناءٍ وظمأ». وجاء بعده الحكاية التالية، وهي ناقصة من الآخر، زيدت في المطبوع نقلاً عن إحدى النسخ ولم ترد في غيرها، كما لم ترد في نسخنا المعتمدة، ولعلها من إضافات الناسخ، وهي: «حكي عن سهل بن عبد الله التُّسْتَري الزاهد رحمه الله: أنه كان يواظب على الصيام، فمرَّ يوماً بتمَّار وبين يديه رطب حسن، فاشتهت نفسه، فردَّ شهوتها، فقالت نفسه: فعلْتَ بي كلَّ بليَّةٍ؛ من سهر الليالي، وظمأِ الهواجر، فأعطني هذه الشهوة، واستعملني في الطاعة كيف شئت. فاشترى سهل من الرطب وخبز الحواري وقليل شوي، ودخل موضعاً ليأكل، فإذا رجلان يختصمان، فقال أحدهما: إني محقٌّ وأنت مبطل، أتريد أن أحلف لك أنِّي محقٌّ وأنَّ الأمر على ما زعمْتُ؟ قال: بلى. فحلف، قال: وحقِّ الصائمين إنِّي محقٌّ في دعواي. فقال: هذا مبعوث الحقِّ تعالى إلى هذا السوط بي، ثم أخذ بلحيته وقال: يا سهل! بلغ من شرفك وشرف صومك حتى يحلفَ العبادُ بصومك، فيقول: وحقِّ الصائمين، ثم تفطرُ أنت على قليل رطب...».

[1] في ش، ع: «فتستنشق». [2] انظر الخبر في «صفة الصفوة» ٣/٣٣٤. [3] في آ، ب، ط: «الصيام». [4] قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي رقم (٢٨٦٧) في الأمثال: باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأخرجه أحمد في «مسنده» ٤/١٣٠ والحاكم في «المستدرك» وصححه.

لمَّا كان معاملة المخلصين بصيامهم لمولاهم سِرًّا بينه وبينَهُم، أظهَرَ اللهُ سِرَّهم لعباده فصار علانيةً، فصار هذا التجلِّي والإظهار جزاءً لذلك الصَّوْنِ والإسْرارِ.

في الحديث: «ما أسَرَّ أحَدٌ سَرِيرةً إلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِداءَها عَلَانيةً»[1].

قال يوسُف بن أَسْبَاطٍ[2]: أوحَى الله تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء: قُلْ لقومِك يُخفون لي أعمالهم، وعليَّ إظهارُها[3] لهم.

تـذلُّلُ أربـابِ الهوَى في الهـوى عِـزٌّ وفَقْـرُهُمُ نَحْـوَ الحبيبِ هُـوَ الكَنْـزُ
وسَتْـرُهُمُ فيـه السَّـرائـرَ شُـهـرةٌ وغيـرُ تـلافِ النَّفسِ فيـه هُـو العَجْـزُ

والمعنى الثاني: أنَّ مَن عَبَدَ الله وأطاعَهُ، وطلَبَ رضَاهُ في الدنيا بعَمَلٍ، فنشَأَ مِن عمله آثارٌ مكروهةٌ للنفوس في الدنيا، فإنَّ تلك الآثار غيرُ مكروهةٍ عندَ اللهِ، بل هي محبوبةٌ له وَطَيِّبَةٌ عندَه؛ لكونِها نشأتْ عن طاعته واتباعِ[4] مَرضاته. فإخبارُهُ بذلك للعاملين في الدُّنيا فيه تطييبٌ لقلوبهم؛ لئلَّا يكرَه منهم ما وُجِدَ في الدنيا. قال بعضُ السَّلَف: وَعَدَ الله موسى ثلاثين ليلة[5] أن يكلِّمه على رأسِها؛ فصام ثلاثين يوماً، ثم وَجَدَ مِن فِيه خُلُوفاً، فَكَرِهَ أن يناجِيَ رَبَّه على تلك الحالِ، فأَخَذَ سِواكاً فاسْتاكَ به، فلمَّا أتَى لموعِدِ اللهِ إيَّاهُ، قال له: يا موسى، أَمَا علمتَ أنَّ خُلُوفَ فمِ الصَّائمِ أطيبُ عندنا مِن ريح المِسْكِ، ٱرْجِع فصُمْ عَشَرَةً أخرى.

ولهذا المعنى كان دَمُ الشَّهيد ريحُهُ يومَ القيامة كريحِ المِسْكِ، وغُبَارُ المجاهدين في سبيلِ الله[6] ذَرِيرةُ أهل الجنَّة.

ورد في ذلك حديثٌ مرسَلٌ. كُلُّ شيءٍ ناقِصٌ في عُرْفِ النَّاسِ في الدُّنيا؛

---

[1] ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٢٥/١٠ عن جندب بن سفيان، وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه حامد بن آدم وهو كذاب». وأورده الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» ٨١/٥ وقال: «ضعيف جداً». ونص الحديث: «ما أسرَّ عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها: إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر». [2] هو من قرية يقال لها شيح، وكان من الزهاد، له مواعظ وحكم، نزل الثغور مرابطاً، مات قبل المائتين بسنة. (صفة الصفوة ٢٦١/٤، سير أعلام النبلاء ١٦٩/٩). [3] في آ، ش: «أظهرها لهم». [4] في آ: «وابتغاء». [5] في آ، ش: «ثلاثين يوماً». [6] في آ، ش، ع: «في سبيله». والذَّريرة: نوع من الطيب مجموع من أخلاط.

حتَّى [1] إذا انتسَبَ إلى طاعته ورِضَاهُ فهو الكامِلُ في الحقيقة.

خُلُوفُ أفواهِ الصائمين له أطيبُ مِن ريحِ المِسْكِ. عُرْيُ المحرِمِينَ لزيارة بيتِهِ أجمَلُ مِن لباسِ الحُلَل. نَوْحُ المُذنبينَ على أنفسهم من خشيتِه أفضَلُ من التسبيح. انكسارُ المخبتين[2] لعظمتِهِ هو الجبْر. ذُلُّ الخائفين من سطوته هو العِزُّ. تهتُّكُ المحبِّينَ في محبَّته أحسَنُ من السَّتْرِ. بَذْلُ النُّفوسِ للقتل في سبيله هو الحياة. جُوعُ الصَّائمين لأجله هو الشِّبْع، عَطَشُهم في طلبِ مرضاتِهِ هو الرِّيُّ. نَصَبُ المجتهدين[3] في خدمته هو الرَّاحة.

ذُلُّ الفَتَى في الحُبِّ مَكْرُمَةٌ وخُضُوعُهُ لحبِيبِهِ شَرَفُ

هَبَّت اليومَ على القلوب نفحةٌ مِن نَفَحَات نسيم القُرْبِ. سَعَى سِمْسَارُ المواعظِ للمهجورين في الصلح. وَصَلَت البِشارةُ للمنقطعين بالوصل، وللمذنبين بالعَفْو، وللمستوجبين النارَ بالعِتق.

لمَّا سُلْسِلَ الشَّيْطانُ في شهر رمضانَ، وخَمَدَتْ نيرانُ الشَّهواتِ بالصِّيام، انعزَلَ سلطانُ الهَوَى، وصارت الدولَةُ لحاكِمِ العَقْلِ بالعَدْل؛ فلم يبقَ للعاصِي عُذْرٌ. يا غُيومَ الغفلةِ عن القلوب تقشَّعِي. يا شُموسَ التقوَى والإيمانِ اطلعي. يا صحائفَ أعمال الصَّالحين[4] ارتفعي. يا قلوبَ الصَّائمين اخشَعي. يا أقدامَ المجتهدين اسجدي لربِّك واركعِي. يا عيونَ المتهجدين لا تهجعي. يا ذنوبَ التائبين لا ترجِعي. يا أرضَ الهَوَى ابلعِي ماءكِ. ويا سَماءَ النُّفوسِ أَقْلِعي. يا بروقَ الأشواق للعشاق المعِي. يا خواطرَ العارفين ارتعي. يا هِمَمَ المحبِّين بغير الله لا تقنعي. يا جُنَيْدُ[5] اطْرَبْ. يا شِبْلِيُّ[6]

---

[1] لفظ «حتى» زيادة من (ط). [2] الإخبات: الخشوع والتواضع. [3] في ش: «المتهجدين». [4] في ب، ش: «القائمين»، وفي ط: «الصائمين». [5] هو الجُنَيد بن محمد بن الجُنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم، صوفي، من العلماء بالدِّين. عدَّه العلماء شيخ مذهب التصوف؛ لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنَّة، مات سنة ٢٩٧ هـ. (صفة الصفوة ٢/٤١٦، تاريخ بغداد ٧/٢٤١).
[6] هو أبو بكر الشِّبلي، دلف بن جحدر، ناسك، ولي الحجابة للموفق العباسي، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، له شعر جيد، سلك به مسلك المتصوفة، توفي سنة ٣٣٤ هـ. (صفة الصفوة ٢/٤٥٦، تاريخ بغداد ١٤/٣٨٩).

احْضُرْ. يا رابعَةُ[1] اسْمَعِي، قد مُدَّتْ في هذه الأيام موائدُ الإنعامِ للصُّوَّام، فما مِنكم إلَّا مَنْ دُعِي. ﴿ يا قَوْمَنا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾[2]. ويا هِمَمَ المؤمنين أسرِعي، فطوبَى لمن أجابَ فأصاب، وويلٌ لمن طُرِدَ عن الباب وما دُعِي.

[سألتكِ يا بانَةَ الأجرعي متى رفع[3] الحيُّ من لَعْلَعي[4]
وهل مَرَّ قلبي مع الظَّاعنين أم خار ضُعفاً فلم يُتبعي
رَحَلْنا ووافَقَنا الصَّادقون ولم يتخلَّفْ سِوى مُدَّعِي][5]
ليتَ شِعْري إن جئتُهم يقبلُوني أم تُراهُمْ عن بابهم يصرفوني
أم تُراني إذا وقفْتُ لديهِم يأذنوا بالدُّخول أم يَطرُدُوني

* * *

المجلس الثاني
في فضل الجود في رمضان وتلاوة القرآن

في «الصحيحين»[6] عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: «كان النَّبيُّ ﷺ أجوَدَ النَّاسِ، وكان أجوَدَ ما يكونُ في رَمَضَانَ حين يلقاهُ جِبريلُ فيدارِسُهُ القرآنَ، وكان جِبريلُ يلقاهُ في كُلِّ ليلةٍ من رَمَضَانَ[7] فيدارِسُهُ القرآن؛ فلَرَسُولُ الله ﷺ حين يلقاهُ جبريلُ أجوَدُ بالخَيْرِ من الرِّيح المُرْسَلَة».

وخرَّجه الإمام أحمدُ بزيادةٍ في آخره، وهي: «لا يُسألُ عن شيء إلا أعطاه». الجُودُ هو سَعَةُ العَطَاءِ وكثرتُهُ، والله تعالى يُوصَفُ بالجود.

---

[1] هي رابعة العَدَويَّة، أم الخير البصرية، الصالحة الزاهدة، الخاشعة، لها أخبار في العبادة والنسك، وقد سبقت ترجمتها. [2] سورة الأحقاف الآية ٣١. [3] في آ: «دفع»، وفي ب: «رجع». [4] في ش، ع: «لعلع ... يُتبع». [5] ما بين قوسين ساقط في (ط). [6] أخرجه البخاري ١/ ٣٠ رقم (٦) في بدء الوحي، وفي الصوم رقم (١٩٠٢): باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، وفي بدء الخلق رقم (٣٢٢٠): باب ذكر الملائكة، وفي المناقب رقم (٣٥٥٤): باب صفة النبي ﷺ، وفي فضائل القرآن رقم (٤٩٩٧): باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ؛ ومسلم رقم (٢٣٠٨) في الفضائل: باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسل. وأخرجه النسائي ٤/ ١٢٥ في الصيام: باب الفضل والجود في شهر رمضان. وقد تكررت هنا عبارة «فيدارسه القرآن». [7] قوله: «من رمضان» لم يرد في آ، ش، ع.

وفي الترمذي[1] من حديث سَعْد بن أبي وَقَّاص، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ، كريمٌ يُحبُّ الكَرَمَ».

وفيه أيضاً: من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، عن رَبِّه، قال: «[يقول اللهُ تعالى:] يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وحيَّكم ومَيِّتكم، ورَطْبَكم ويابِسَكُم اجتَمَعُوا في صعيدٍ واحدٍ، فسأل كُلُّ إنسان منكم، ما بَلَغَتْ أمنيَّتَهُ، فأَعْطَيْتُ كُلَّ سائل[2] منكم، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلْكِي إلَّا كما لو أنَّ أَحَدَكُم مَرَّ بالبحر، فغَمَسَ فيه إبرَةً ثم رفَعَها إليه؛ ذلك بأنِّي جَوادٌ واجِدٌ ماجِدٌ، أفعَلُ ما أريدُ، عَطَائي كلامٌ، وعذابي كلام، إنَّما أمري لشيءٍ إذا أردْتُ أن أقولَ له: كُنْ فيكون»[3]

وفي الأثر المشهور عن فُضَيل بن عياضٍ: إنَّ الله تعالى يقولُ كُلَّ ليلةٍ: أنا الجوادُ ومنِّي الجُودُ، أنا الكريم ومنِّي الكَرَمُ. فاللهُ سبحانه وتعالى أجودُ الأجودين، وجُودُهُ يتضاعَفُ في أوقاتٍ خاصَّةٍ، كشهرِ رمضانَ، وفيه أُنزِلَ قولُه تعالى: ﴿وإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فإنِّي قَريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إذا دَعَان﴾[4].

وفي الحديث الذي خرَّجه الترمذيُّ[5] وغيرُه «أنَّه يُنادِي فيه منادٍ: يا باغِيَ الخَيْرِ هَلُمَّ، ويا باغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، ولله عُتَقاءُ مِن النَّار، وذلك كُلَّ ليلةٍ».

ولمَّا كان الله عزَّ وجلَّ قد جَبَلَ نبيَّه ﷺ على أكمل الأخلاق وأشرفها، كما في حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارِمَ الأخلاق»[6]. وذكره

[1] قطعة من حديث أخرجه الترمذي رقم (٢٨٠٠) في الأدب: باب ما جاء في النظافة. قال الترمذي: هذا حديث غريب، وخالد بن إلياس يضعَّف ولفظه فيه: «سُمع يقول: «إنَّ الله طيِّبٌ يحبُّ الطيِّب، نظيفٌ يحبُّ النظافة، كريم يحبُّ الكَرَم، جوادٌ يحبُّ الجود، فنظِّفوا ـ أُراه قال: أفنِيَتَكُم ـ ولا تَشَبَّهوا باليهود». [2] في آ: «كل إنسان منكم ما بلغت أمنيَّته». [3] رواه أحمد في «مسنده» ٥/١٥٤، ١٧٧ مع اختلاف يسير، ومسلم رقم (٢٥٧٧) في البر والصلة: باب تحريم الظلم، والترمذي رقم (٢٤٩٧) في صفة القيامة: باب فضل الرفق بالضعيف والوالدين والمملوك، وقال: هذا حديث حسن. وأخرجه ابن ماجه رقم (٤٢٥٧) في الزهد: باب ذكر التوبة. وهو حديث مشهور وأصل من أصول الإسلام. كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه. وقال أحمد بن حنبل: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث. [4] سورة البقرة الآية ١٨٦. [5] أخرجه الترمذي رقم (٦٨٢) في الصوم: باب ما جاء في فضل شهر رمضان، عن أبي هريرة. وليس في المطبوع لفظة «هلم». وبنحوه من حديث عُتْبَة بن فَرْقَد عند النسائي ٤/١٢٩ و ١٣٠ في الصيام: باب فضل شهر رمضان، وهو حديث حسن. [6] في آ، ب، وإحدى نسخ المطبوع: «صالح الأخلاق».

مالك في الموطأ[1] بلاغاً. فكان رسول الله ﷺ أجودَ الناسِ كُلِّهم.

وخرَّجَ ابنُ عدي[2] بإسنادٍ فيه ضَعفٌ من حديث أنسٍ مرفوعاً: «ألا أخبرُكُم بالأجْوَدِ الأجْوَدِ؟ اللهُ الأجْوَدُ الأجْوَدُ، وأنا أَجْوَدُ بني آدَمَ، وأجودُهم من بعدي رجُلٌ عَلِمَ عِلْماً فنشَرَ عِلْمَه، يُبْعَثُ يومَ القيامةِ أمَّةً وحدَهُ، ورجلٌ جَادَ بنفسِهِ في سبيل الله». فدَلَّ هذا على أنَّه ﷺ أجْوَدُ بني آدمَ على الإطلاق، كما أنه أفضلُهم وأعلَمُهم وأشجعُهم وأكملُهم في جميع الأوصافِ الحميدة.

وكان جودُهُ بجميع أنواعِ الجُودِ، مِن بذْلِ العِلْم والمالِ، وبذْلِ نفسِه للّه تعالى في إظهار دينه وهِداية عِبَـاده، وإيصال النفع إليهم بكُلِّ طريقٍ؛ من إطعام جائعهم، ووعظ جاهِلِهم، وقضاءِ حوائجهم، وتحمُّلِ أثقالهم.

ولم يزَلْ ﷺ على هذه الخِصال الحميدة منذ نَشَأ، ولهذا قالت له خديجةُ في أوَّل مبعثِه: واللهِ، لا يُخزيك اللهُ أبداً، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتحمِلُ الكَلَّ[3]، وتَكسِبُ المعدومَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ[4].

ثم تزايدَتْ هذه الخصال فيه بَعْدَ البعثةِ وتضاعَفَتْ أضعافاً كثيرةً.

---

[1] في ش: «في موطئه مرسلاً بلاغاً». والحديث في الموطأ ٢/٩٠٤ في حسن الخلق: باب ما جاء في حسن الخلق، وإسناده منقطع، ولكن للحديث شواهد بمعناه يرتقي بها إلى درجة الحسن، قال الزرقاني: رواه أحمد وقاسم بن أصبغ والحاكم والخرائطي برجال الصحيح، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. وقال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره، وللطبراني عن جابر مرفوعاً «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال». انظر جامع الأصول ٤/٤. ولفظه في «الموطأ»: عن مالك بن أنس رحمه الله، بَلَغَه: أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت لأتمم حسن الخُلُق». [2] الكامل لابن عدي ١/٣٥٠ عن أيوب بن ذكوان، قال: وعامة ما يرويه لا يتابع عليه. وأخرجه أبو يعلى بهذا السند في «مسنده» ٥/١٧٦. وذكره السيوطي في «اللآليء المصنوعة» ١/٢٠٦ ـ ٢٠٧ وقال: «قال ابن حبان: منكر باطل، وأيوب منكر الحديث، وكذا نوح [بن ذكوان]». ثم قال: «رواه أبو يعلى في مسنده» وأورده ابن الجوزي في الموضوعات». وقد ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/١٣ وقال: «رواه أبو يعلى، وفيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك». [3] الكَلُّ: الثقل من كل ما يُتكلَّف، والعِيال. (النهاية ٤/١٩٨). [4] من حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه البخاري ١/٢٢ ـ ٢٧ في بدء الوحي، وفي الأنبياء، باب: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنَّه كان مخلصاً﴾، وفي تفسير سورة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، وفي =

وفي «الصحيحين»[1] عن أنس، قال: «كان رسولُ الله ﷺ أحسَنَ النَّاسِ، وأَشْجَعَ النَّاسِ، وأجْوَدَ الناس». وفي «صحيح مسلم»[2] عنه، قال: «ما سُئِلَ رسُولُ اللهِ ﷺ على الإسلام شيئاً إلَّا أَعْطَاهُ، فجاءَهُ رَجُلٌ فأعطاه غَنَماً بين جَبَلين، فرجَعَ إلى قَوْمِهِ، فقال: يا قوم، أسْلِموا؛ فإنَّ محمَّداً يُعطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفَاقَةَ». وفي رواية له: إن رجلاً سأَلَ النبي ﷺ غَنَماً بين جَبَلين، فأعطاه إياهُ، فأتى قومَه، فقال: يا قوم، أسْلِمُوا؛ فإنَّ محمداً يُعطِي عطاءً ما يخافُ الفَقْرَ.

قال أنس: إن كان الرجل لَيُسْلِمُ ما يريد إلَّا الدنيا، فما يُمسِي[3] حتى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها. وفيه[4] أيضاً: عن صَفْوانَ بنِ أميَّة، قال: لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنَّه لمِنْ أبغَضِ النَّاسِ إليَّ، فما بَرِحَ يُعطيني حتَّى إنَّه لأحَبُّ النَّاسِ إليَّ. قال ابنُ شهاب[5]: أعطاه يومَ حنينٍ مائةً مِن النعم، ثم مائةً، ثم مائةً. وفي مغازي الواقِدي[6] أنَّ النبي ﷺ أعطَى صفوانَ بن أميَّة يومئذ وادياً مملوءاً إبلاً ونَعَماً، فقال صفوان: أشهدُ ما طابَتْ بهذا إلَّا نفسُ نَبيٍّ. وفي «الصحيحين»[7] عن جُبَيْر بن مُطْعِمٍ: أنَّ الأعراب عَلِقُوا بالنبيِّ ﷺ مَرْجِعَهُ من حُنينٍ

= التعبير: باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة. وأخرجه مسلم رقم (١٦٠) في الإيمان: باب بدء الوحي برسول الله ﷺ؛ والترمذي رقم (٣٦٣٦) في المناقب، باب رقم (١٣). ومعنى كلام خديجة رضي الله عنها: أنك لا يصيبك مكروه؛ لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل. انظر شرح مسلم للنووي ١/٢٠٢.

[1] أخرجه البخاري مطولاً رقم (٢٨٥٧) في الجهاد: باب اسم الفرس والحمار، ورقم (٢٩٠٨): باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق. ومسلم رقم (٢٣٠٧) في الفضائل: باب شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب. ونصه: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وَجْهاً، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس؛ ولقد فَزِعَ أهلُ المدينة ذات ليلةٍ، فانطلق ناس من قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت...» إلى آخر الحديث. [2] رقم (٢٣١٢) في الفضائل: باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا. [3] ويروى: «فما يلبَث إلا يسيراً حتى يكون». [4] أخرجه مسلم رقم (٢٣١٣) في الفضائل: باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا. ورواه الترمذي رقم (٦٦٣) في الزكاة: باب ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم. [5] هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أول من دوَّن الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، توفي سنة ١٢٤ هـ. [6] مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٥٤ - ٨٥٥. [7] أخرجه البخاري رقم (٢٨٢١) في الجهاد: باب الشجاعة في الحرب، وباب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه رقم (٣١٤٨). ولم يرد في صحيح مسلم.

يَسألونَه أن يَقْسِم بَينهم، فقال: «لو كان لي عَدَدُ هذه العِضَاهِ نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بينكم، ثم لا تجِدُوني بَخيلاً، ولا كَذُوباً، ولا جَبَاناً».

وفيهما [1] عن جابرٍ، قال: «ما سُئلَ رَسُولُ الله ﷺ شيئاً فقال: لا»، وأنه قال لجابرٍ: لو جاءنا مالُ البَحْرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا، وقال بيديه: جميعاً. وخرَّج البخاري[2] من حديث سَهْل بن سَعْدٍ: أنَّ شَمْلةً أُهْدِيَتْ للنبيِّ ﷺ فلَبِسَها وهو محتاجٌ إليها، فسأله إيَّاها رَجُلٌ فأعطاهُ، فلامه النَّاسُ، وقالوا: كان مُحتاجاً إليها، وقد عَلِمْتَ أنَّه لا يَرُدُّ سائلاً، فقال: إنما سألتُها لتكونَ كَفَني، فكانَتْ كفَنَه. وكان جودُه ﷺ كُلُّهُ للّه عزَّ وجلَّ، وفي ابتغاء مرضاته، فإنَّه كان يبذُلُ المالَ: إمَّا لفقير، أو محتاجٍ، أو ينفقه في سبيل الله، أو يتألَّف به على الإسلام من يَقْوَى الإسلامُ بإسلامه.

وكان يؤثر على نفسه وأهلِه وأولادِهِ، فيعطي عطاءً يعجزُ عنه الملوكُ مثل كسرى وقيصر، ويعيشُ في نفسه عيشَ الفقراءِ، فيأتي عليه الشهرُ والشهران لا يوقَدُ في بيته نارٌ، وربما رَبَطَ على بطنه الحجَرَ من الجُوع. وكان قد أتاه ﷺ سبيٌ مرَّةً، فشكت إليه فاطمَةُ ما تلقى من خدمة البيت، وطلبت منه خَادماً يكفيها مؤونَةَ بيتِها، فأمَرَها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها، وقال: «لا أعطيك وأدَع أهلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بطونُهم من الجوع»[3]. وكان جودُه ﷺ يتضاعَفُ في شهر رمضان على غيره من

---

[1] أخرجه البخاري رقم (٦٠٣٤) في الأدب: باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل؛ ومسلم رقم (٢٣١١) في الفضائل: باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

[2] أخرجه البخاري ٣/١٤٣ رقم (١٢٧٧) في الجنائز: باب من استعدَّ الكفن في زمن النبي فلم ينكر عليه و ٤/٣١٨ رقم (٢٠٩٣) في البيوع: باب النسَّاج و ١٠/٢٧٥ (رقم ٥٨١٠) في اللباس: باب البرود والحبر والشملة و ١٠/٤٥٦ (رقم ٦٠٣٦) في الأدب: باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل. ورواه النسائي ٨/٢٠٤ وابن ماجه رقم (٣٥٥٥) في اللباس: باب لباس رسول الله ﷺ، وأحمد في «مسنده» ٥/٣٣٤.

[3] أخرجه البخاري ٦/٢١٥ في فرض الخمس: باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ والمساكين وإيثار النبي ﷺ أهل الصفة والأرامل و ٧/٧١ في فضائل الصحابة: باب مناقب علي بن أبي طالب و ٩/٥٠٦ في النفقات: باب عمل المرأة في بيت زوجها، وباب خادم المرأة، و ١١/١١٩ في الدعوات: باب التكبير والتسبيح عند المنام. ورواه أحمد في «المسند» ١/٧٩، ٩٦، ١٠٦، ١٥٣ مختصراً ومطولاً.

الشهور، كما أنَّ جُودَ رَبِّه يتضاعَفُ فيه أيضاً، فإنَّ الله جَبَلَه على ما يُحبُّه مِن الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة.

ذكر[1] ابنُ إسحاقَ عن وَهْب بن كَيْسان[2]، عن عُبَيد بن عُمَير، قال: كان رسول الله ﷺ يُجاوِرُ في حِرَاءَ من كُلِّ سنةٍ شهراً، يُطْعِم مَنْ جاءهُ مِن المساكين، حتى إذا كان الشهرُ الذي أراد اللهُ به ما أراد مِن كرامته، من السَّنةِ التي بعثه الله فيها، وذلك الشهر شهرُ رمضانَ، خَرَجَ إلى حِرَاءَ كما كان يخرج لجوارِه مَعَهُ أهلُهُ، حتَّى إذا كانت اللَّيلةُ التي أكرمَهُ الله تعالى برسالته، ورَحِمَ العِبَادَ بها، جاءَهُ جبريلُ من[3] الله عزَّ وجلَّ. ثم كان بعدَ الرسالة جودُه في رمضانَ أضعافَ ما كان قبلَ ذلك؛ فإنه كان يلتقي هو وجبريلُ عليه السَّلام، وهو أفضَلُ الملائكة وأكرمُهم، ويدارسُه الكتابَ الذي جاء به إليه، وهو أشرفُ الكتُبِ وأفضلُها، وهو يَحُثُّ على الإحسان ومكارم الأخلاق.

وقد كان رسول الله ﷺ هذا الكتابُ له خُلُقاً بحيثُ يرضَى لرضاه، ويسخَطُ لسخطِهِ، ويسارع إلى ما حثَّ عليه، ويمتنع ممَّا زجر عنه؛ فلهذا كان يتضاعَفُ جودُه وإفضالُه في هذا الشهر؛ لِقُرْب عهدِه بمخالطةِ جبريلَ عليه السلام، وكثرةِ مدارسته له هذا الكتابَ الكريمَ، الذي يحُثُّ على المكارم والجُود. ولا شكَّ أنَّ المخالطة تؤثِّر وتورِثُ أخلاقاً من المخالط[4]. كان بعضُ الشعراء قد امتدح ملِكاً جَواداً، فأعطاه جائزةً سنيةً، فخرج بها من عنده وفرَّقها كلَّها على الناس، وأنشد[5]:

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّه أبتَغِي الغنى ولم أَدْرِ أنَّ الجُودَ مِن كَفِّه يُعْدِي

فبلغ ذلك الملكَ فأضعفَ له الجائزة. وقد قال بعضُ الشعراء يمتدح بعضَ

---

[1] في ب، ط: «وذكر». وانظر السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٣٥ - ٢٣٦. [2] هو وهب بن كيسان القرشي مولاهم، أبو نعيم المدني، المعلّم، ثقة، روى له الجماعة، توفي سنة ١٢٧ هـ (التقريب). [3] في سيرة ابن هشام: «بأمر الله تعالى». [4] في ش، ط: «المخالطة». [5] أحد بيتين مشهورين لابن الخياط، مدح بهما المهدي، وهما في الأغاني ١٨/١٤، وأمالي المرتضى ١/٥٢٢، وبعده:

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفَدْتُ وأعدائي فأتْلَفْتُ ما عندي

الأجواد ولا يصلح أن يكون ذلك إلاَّ لرسول الله ﷺ[1]:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتَّى لَوَ أنَّه ... ثَناها لِقَبْضٍ لم تُجِبْهُ أنامِلُه
تَرَاهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتهلِّلاً ... كأنَّك تعطِيه الذي أنتَ سائِلُه
هُوَ البَحْرُ مِن أيِّ النَّواحِي أتيْتَهُ ... فَلُجَّتُه المعروفُ والجُودُ ساحِلُه
ولو لم يكُن في كَفِّه غيرُ رُوحِه ... لجادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُه

سمِعَ الشِّبْلِيُّ قائلاً يقولُ: يا الله! يا جوادُ! فتأوَّه وصَاحَ، وقال: كيفَ يمكنني أن أصفَ الحقَّ بالجودِ ومخلوقٌ يقولُ في شكله، فذكر هذه الأبيات، ثم بكى، وقال: بلى يا جوادُ؛ فإنَّك أوجدْتَ تلك الجوارِحَ، وبسَطْتَ تلك الهمم، فأنتَ الجوادُ كُلَّ الجوادِ؛ فإنَّهم يُعطونَ عن محدودٍ وعطاؤكَ لا حدَّ له ولا صِفة، فيا جواداً يعلو كُلَّ جوادٍ، وبه جادَ كُلُّ مَن جاد.

وفي تضاعُفِ جُودِهِ ﷺ في شهر رمضان بخصوصِه فوائدُ كثيرة؛

منها: شرفُ الزمان، ومضاعفَةُ أجرِ العمَلِ فيه. وفي الترمذي[2] عن أنس مرفوعاً: «أفضَلُ الصَّدَقَةِ صَدَقَةٌ في رمضان».

ومنها: إعانة الصَّائمين والقائمين والذَّاكرين على طاعاتهم، فيستوجب المعين لهم مثلَ أجرِهم، كما أنَّ مَنْ جهَّزَ غازياً فقد غَزَا، ومَن خَلَفَهُ في أهله فقد غزا.

وفي حديث زيد بن خالد عن النبي ﷺ، قال: «مَنْ فَطَّرَ صائماً فلهُ مِثْلُ أجْرِه،

---

[1] الأبيات عدا البيت الثاني في ديوان أبي تمام ٢٩/٣ من قصيدة في مدح المعتصم بالله. والثاني لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٥٧. ونسب بعضها لعدد من الشعراء. [2] كنز العمال رقم (١٦٢٤٩) وعزاه إلى سُليم في «جزئه» عن أنس. قال المناوي في «فيض القدير» ٣٨/٢: أخرجه البيهقي في الشعب، بل أخرجه الترمذي. وذكره السيوطي في «الجامع الصغير»، وأورده الألباني في كتابه «ضعيف الجامع الصغير» رقم (١١١٧). وفي «الاتحاف» ١١١/٤: أخرجه الترمذي والديلمي من حديث أنس، والبيهقي في شعب الإيمان، والخطيب في التاريخ. وسُليم الرازي في «جزئه» من حديثه أيضاً بلفظ: «أفضل الصدقة في رمضان»، وقد تكلم ابن الجوزي في هذا الحديث وعلَّه بأحد رواته: صدقة بن موسى، قال ابن معين: ليس بشيء. وإنَّما خص رمضان بذلك لما فيه من إفاضة الرحمة على عباده أضعاف ما يفيضها في غيره، فكانت الصدقة فيه أعظم قرباً منها في غيرها.

من غيرِ أن يَنْقُصَ مِن أجرِ الصَّائم شيءٌ». خرَّجه الإمام أحمد[1]، والنسائيُّ، والترمذيّ، وابن ماجه. وخرَّجه الطبراني[2] من حديث عائشةَ، وزاد: «وما عَمِلَ الصائمُ مِن أعمال البرِّ إلاَّ كان [أجره] لصاحِبِ الطَّعام ما دام قُوة الطعام فيه».

وخرَّج ابنُ خزيمة في «صحيحه»[3] من حديث سَلْمانَ مرفوعاً حديثاً في فضل شهر رمضانَ، وفيه: «وهو شهرُ المواساةِ، وشَهرٌ يُزَادُ فيه في رِزْقِ المؤمنِ؛ مَنْ فَطَّرَ فيه صائماً كان مَغْفِرةً لذنوبه، وعَتَقَ رقبتَه من النَّار، وكان له مِثْلُ أَجْره من غير أن يَنْقُصَ من أجره شيء». قالوا: يا رسولَ الله! ليس كلُّنا يَجِدُ ما يُفَطِّرُ الصَّائمَ. قال: «يُعطِي اللهُ هذا الثَّوابَ لمن فطَّر صائماً على مَذْقَةِ لبنٍ، أَو تمرةٍ، أو شربةِ ماءٍ. ومَن أشبَعَ فيه صائماً سقاهُ اللهُ من حَوْضِي شَرْبَةً لا يَظْمَأُ بَعْدَها[4] حتى يدخُلَ الجنَّةَ».

ومنها: أنَّ شهرَ رمضانَ شهرٌ يجودُ الله فيه على عبادِه بالرَّحمة والمغفرة والعتْقِ من النار، لا سيما في ليلة القَدْرِ. والله تعالى يرحَمُ من عبادِه الرُّحَماءَ، كما قال ﷺ: «إنَّما يرحَمُ اللهُ مِن عبادِه الرُّحَماء»[5].

فَمَن جاد على عبادِ الله جادَ اللهُ عليه بالعطاءِ والفضلِ؛ والجزاءُ مِن جنسِ العمَلِ.

ومنها: أنَّ الجمع بين الصِّيام والصَّدقةِ من موجباتِ الجنَّةِ، كما في حديثِ عليٍّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إنَّ في الجنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظُهُورُها من بُطونِها،

---

[1] رواه أحمد في «المسند» ٤/١١٤، ١١٦؛ والترمذي رقم (٨٠٧) في الصوم: باب ما جاء في فضل من فطَّر صائماً؛ وابن ماجه رقم (١٧٤٦) في الصيام: باب صيام أشهر الحرم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال. والطبراني ٥/٢٥٥ ـ ٢٥٧. [2] ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٥٧ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه الحكم بن عبد الله الأبلي، وهو متروك». [3] ٣/١٩١ رقم (١٨٨٧) في فضائل شهر رمضان، وروي هنا مختصراً. وإسناده ضعيف. قال البنا في «الفتح الرباني» ٩/٢٢٣: رواه ابن خزيمة في صحيحه، ثم قال: إن صحَّ الخبر. وفي سنده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. [4] لفظ «بعدها» لم يرد في آ، ش وصحيح ابن خزيمة. [5] أخرجه البخاري رقم (١٢٨٤) في الجنائز باب (٣٢) وغيره، ومسلم رقم (٩٢٣) في الجنائز: باب البكاء على الميت. وأخرجه الطبراني ٢/٣٢٤ عن جرير بسند صحيح.

وبطونُها من ظُهورها». قالوا: لمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «لمن طيَّب الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وأدامَ الصِّيام، وصلَّى بالليل والنَّاس نيام»[1].

وهذه الخصال كلُّها تكون في رمضانَ، فيجتمع فيه للمؤمن الصِّيامُ، والقيامُ؛ والصَّدَقةُ، وطيبُ الكلام؛ فإنَّه يُنهى فيه الصَّائمُ عن اللَّغْو والرَّفَثِ.

والصِّيامُ والصَّلاةُ والصَّدقةُ تُوصل صاحبَها إلى الله عزَّ وجلَّ؛ قال بعضُ السَّلف: الصَّلاةُ توصِلُ صاحبَها إلى نصْفِ الطريق، والصِّيامُ يوصِلُه إلى باب الملِكِ، والصَّدقَةُ تأخذُ بيدِه فتدخِلُه على الملِكِ. وفي صحيح مسلم[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من أصبَحَ منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: مَن تَبِعَ منكُمُ اليومَ جَنازَةً؟ قال أبو بكر: أنا، [قال: فمن أطعم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر: أنا،][3]، قال: مَن تصدَّق بصدقةٍ؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن عاد منكم مَريضاً؟ قال أبو بكر: أنا. قال: ما اجْتَمَعْنَ في امرىءٍ إلَّا دخَلَ الجنَّة».

ومنها: أنَّ الجمعَ بين الصِّيام والصَّدقة أبلغُ في تكفير الخطايا واتقاءِ جهنَّم والمباعدة عنها، وخُصُوصاً إن ضمَّ إلى ذلك قيام الليل. فقد ثَبَتَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «الصِّيامُ جُنَّةٌ»[4]. وفي رواية: «جُنَّةُ أحدِكُم مِن النَّار كَجُنَّتِهِ مِنَ القِتال»[5].

---

[1] أخرجه الترمذي رقم (١٩٨٥) في البر والصلة: باب ما جاء في قول المعروف، وهو حديث حسن. ورواه الإمام أحمد في «المسند» ٣٤٣/٥ من حديث أبي مالك الأشعري، والحاكم في «المستدرك» ٨٠/١، ٣٢١ من حديث ابن عمر، وصححه ووافقه الذهبي. [2] رقم (١٠٢٨) في الزكاة: باب من جمع الصدقة وأعمال البر، وفي فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه. [3] ما بين قوسين لم يرد في آ، ب، ش، ط، وقد استدرك من نسخة (ع) وصحيح مسلم. وقوله: «قال: من تصدَّق بصدقة؟ قال أبو بكر: أنا» زيادة لم ترد في صحيح مسلم. [4] أخرجه النسائي عن معاذ بن جبل ١٦٦/٤ في الصوم: باب فضل الصيام، وهو حديث صحيح. وهو قطعة من حديث أخرجه البخاري رقم (١٨٩٤) (٢) في الصوم وغيره، ومسلم رقم (١١٥١) في الصيام، والموطأ ٣١٠/١ وأبو داود رقم (٢٣٦٣)، والنسائي ١٦٣/٤. والجُنَّة: الوقاية. [5] أخرجه النسائي ١٦٧/٤ في الصوم: باب فضل الصيام، وهو حديث حسن. ورواه أيضاً ابن ماجه رقم (١٦٣٩) في الصيام: باب ما جاء في فضل الصيام؛ وأحمد في «المسند» ٢٢/٤، ٢١٧ عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه. وانظر «الترغيب» ٨٣/٢ وصحيح ابن ماجه للألباني رقم (١٣٢٨). ولفظه: «الصيام جُنَّة من النار، كجُنَّة أحدكم من القتال».

وفي حديث معاذ عن النبيِّ ﷺ، قال: «الصَّدَقَةُ تُطفِىءُ الخطِيئةَ كما يُطفِىءُ الماءُ النَّارَ. وقيامُ الرَّجُلِ من جَوْف الليل»[1]، يعني أنه يطفىء الخطيئة أيضاً. وقد صرَّح بذلك في رواية الإمام أحمد. وفي الحديث الصحيح[2] عنه ﷺ أنَّه قال: «اتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ». كان أبو الدَّرداءِ يقولُ: صَلُّوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور. صُوموا يوماً شديداً حرُّه لحرِّ يومِ النشور، تصدَّقُوا بصَدَقةٍ لشرِّ يومٍ عسير.

ومنها: أنَّ الصِّيام لا بدَّ أن يقَعَ فيه خلَلٌ ونَقْصٌ؛ وتكفيرُ الصِّيام للذنوب مشروطٌ بالتحفُّظ ممَّا ينبغي التحفُّظُ منه؛ كما ورد ذلك في حديثٍ خرَّجه ابنُ حِبَّان في صحيحه. وعامَّة صيام النَّاسِ لا يجتمعُ في صومه التحفُّظ كما ينبغي، ولهذا نُهي أن يقولَ الرجلُ: صُمْتُ رمضانَ كُلَّه، أو قمتُه كلَّه. فالصَّدَقَةُ تجبرُ ما فيه من النَّقص والخلل، ولهذا وجَبَ في آخر شهر رمضانَ زكاةُ الفِطْرِ طُهرةً للصَّائم من اللغو والرَّفَثِ. والصِّيامُ والصَّدقةُ لهما مدخلٌ[3] في كفَّارات الأيمان، ومحظوراتِ الإحرام، وكفَّارَةِ الوطءِ في رمضان. ولهذا كان الله تعالى قد خيَّر المسلمين في ابتداء الأمر بين الصِّيامِ وإطعامِ المسكين، ثم نُسِخَ ذلك، وبقي الإطعامُ لمن يعجز عن الصِّيام؛ لكبره. ومَن أخَّرَ قضاءَ رمضانَ حتى أدركَهُ رمضانٌ آخَرُ، فإنَّه يقضيه ويضمّ إليه إطعامَ مسكينٍ لكل يومٍ، تقويةً له عند أكثر العلماءِ، كما أفتى به الصَّحابة. وكذلك مَن أفطر لأجل غيره، كالحاملِ والمرضعِ؛ على قول طائفة من العلماء.

ومنها: أنَّ الصَّائم يَدَعُ طعامَه وشرابَه للّه، فإذا أعان الصَّائمين على التقوِّي على

---

[1] من حديث طويل أخرجه الترمذي رقم (٢٦١٩) في الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة ورواه أحمد أيضاً في «المسند» ٥/٢٣١، ٢٣٧، ٢٤٨، وابن ماجه رقم (٣٩٧٣) في الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، وهو حديث صحيح بطرقه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. [2] أخرجه البخاري رقم (١٤١٧) في الزكاة: باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، وباب الصدقة قبل الرد، وفي الأنبياء: باب علامات النبوة في الإسلام، وفي الأدب: باب طيب الكلام، وفي الرقاق: باب من نوقش الحساب عذب، وباب صفة الجنة، وفي التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربِّها ناظرة﴾، وباب كلام الرب عزَّ وجلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. وأخرجه مسلم رقم (١٠١٦) في الزكاة: باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة. [3] في آ: «مدخلان».

طعامهم وشرابهم كان بمنزلة مَن تَرَكَ شهوة[1] للّه، وآثر بها، أو واسَى منها[2]. ولهذا يُشْرَع له تفطيرُ الصُّوَّام معَهُ إذا أفطَرَ؛ لأنَّ الطَّعام يكون محبوباً له حينئذ، فيواسي منه، حتى يكونَ ممن أطعَمَ الطَّعام على حبِّه، ويكون في ذلك شكرٌ للّه على نعمةِ إباحة الطَّعامِ والشَّرَابِ له، وَرَدِّه عليه بَعْدَ منعه إيَّاهُ؛ فإنَّ هذه النِّعمةَ إنما عُرِفَ قدرُها عند المَنْعِ منها. وسئل بعضُ السَّلف: لم شُرِعَ الصِّيام؟ قال: ليذوقَ الغنيُّ طعمَ الجُوع فلا ينسى الجائعَ. وهذا من بعض حِكَم الصوم وفوائده. وقد ذكرنا فيما تقدَّم حديثَ سلمان [المرفوع][3]، وفيه: «وهو شهرُ المواسَاةِ» فمن لم يقدر فيه على درجة الإيثار على نفسِه فلا يعجِز عن درجة أهل المواساة. كان كثير من السَّلفِ يواسون من إفطارهم أو يؤثرون به ويَطوون[4]، وكان ابنُ عُمَرَ يصومُ، ولا يُفطِرُ إلَّا مع المساكين، فإذا منعهم[5] أهله عنه، لم يتعشَّ تلك الليلة. وكان إذا جاءه سائلٌ وهو على طعامِه، أَخَذَ نصيبَه من الطعام وقام، فأعطاهُ السائلَ، فيرجع وقد أكل أهلُه ما بقي في الجَفْنَة، فيصبح صائماً ولم يأكُلْ شيئاً.

واشتهى بعضُ الصالحين من السَّلف طعاماً، وكان صائماً، فوُضِعَ بين يديه عند فُطُوره[6]، فسَمِعَ سائلاً يقولُ: من يُقرِض المليَّ الوفِيَّ الغنِي[7]؟ فقال: عبدُهُ المُعْدَمُ من الحسنات. فقام فأخذ الصَّحْفَةَ فخرج بها إليه، وبات طاوياً. وجاء سائل إلى الإمام أحمدَ، فدفع إليه رغيفين كان يُعِدُّهما لفطرِه، ثم طوَى وأصبَحَ صائماً. وكان الحسَنُ[8] يُطعِمُ إخوانَه وهو صائمٌ تطوُّعاً، ويجلس يُروِّحُهُم وهم يأكلون. وكان ابنُ المبارك يُطعمُ إخوانه في السَّفَر الألوان من الحَلواء وغيرها وهو صائم. سلامُ اللهِ على تلك الأرواح. رحمةُ اللهِ على تلك الأشباح؛ لم يَبْقَ منهم إلَّا أخبارٌ وآثار. كم بين من يمنَعُ الحقَّ الواجبَ عليه وبينَ أهلِ الإيثار.

لا تعرضَنَّ لذكرنا في ذكرِهم ... ليسَ الصَّحيحُ إذا مشَى كالمُقْعَدِ

---

[1] في آ: «شهوته». [2] في ش، ع: «فيها». [3] تكملة مستدركة في هامش (آ). [4] الطَّوَى: الجوع. [5] في ب، ط: «منعة أهله عنهم». [6] في ع: «فطره». [7] لفظ «الغني» لم يرد في آ، ش. [8] إذا أطلق لفظ «الحسن» فهو الحسن بن يسار البصري، الإمام الزاهد.

وله فوائد أخر: قال الشافعي رضي الله عنه: أُحِبُّ للرجُل الزِّيادَةَ بالجُودِ في شهر رمضانَ اقتداءً برسولِ الله ﷺ، ولحاجةِ النَّاسِ فيه إلى مصالِحِهم، ولتشاغُلِ كثيرٍ منهم بالصَّوْم والصَّلاة عن مكاسِبهم. وكذا قال القاضي أبو يَعلى وغيرُه من أصحابنا أيضاً. ودَلَّ الحديثُ أيضاً على استحباب دراسةِ القرآن في رمضان، والاجتماع على ذلك، وعَرْضِ القرآن على مَن هُوَ أحفظُ له[1]. وفيه دليلٌ على اسْتِحْباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان.

وفي حديث فاطمة عليها السلام عن أبيها ﷺ «أنَّه أخبرَها: أنَّ جبريلَ [عليه السلام][2] كان يعارِضُه القرآن كُلَّ عامٍ مَرَّةً، وأنَّه عارضَه في عام وفاتِه مَرَّتين»[3]. وفي حديث ابن عباس[4]: «أنَّ المدارسة بينَهُ وبينَ جبريلَ كانت ليلاً»، فدَلَّ على استحباب الإكثار من التِّلاوة في رمضانَ ليلاً؛ فإنَّ الليل تنقطِعُ فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم[5]، ويتواطأ فيه القلبُ واللِّسانُ على التدبُّر، كما قال تعالى: ﴿إنَّ ناشِئَةَ اللَّيلِ هي أَشَدُّ وَطْأً وأقْوَمُ قيلاً﴾[6]. وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذي أُنْزِلَ فيه القرآن﴾[7]. وقد قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: إنَّه أُنزل جملةً واحدَةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزَّة في ليلة القدر. ويشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿إنَّا أنزلْنَاهُ في ليلةِ القَدْر﴾[8]، وقوله: ﴿إنَّا أنزلنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[9].

---

[1] في آ: «أحفظ منه» وفي ع: «أحفظ له منه». [2] زيادة من ب، ط. [3] قطعة من حديث أخرجه البخاري رقم (٣٦٢٤) في المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام؛ ومسلم رقم (٢٤٥٠) (٩٨) في فضائل الصحابة: باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ؛ وابن ماجه رقم (١٦٢١) في الجنائز: باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ. ومعنى يعارضه: يدارسه. [4] رواه البخاري ١/ ٣٠ في بدء الوحي، وفي الصوم: باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، وفي بدء الخلق: باب ذكر الملائكة، وفي الأنبياء: باب صفة النبي ﷺ. وفي فضائل القرآن: باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ. ورواه مسلم رقم (٢٣٠٨) في الفضائل: باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة. والنسائي ٤/ ١٢٥ في الصيام: باب الفضل والجود في شهر رمضان. ورواه الإمام أحمد في «مسنده» ١/ ٢٨٨، ٣٦٧، ٣٧٣. [5] في ب، ط: «ويجتمع فيه الهم». [6] سورة المزمل الآية ٦. [7] سورة البقرة الآية ١٨٥. [8] سورة القدر الآية ١. [9] سورة الدخان الآية ٣.

وقد سبق عن عبيد بن عمير أنَّ النبيَّ ﷺ بُدىء بالوحي ونزولِ القرآن عليه في شهر رمضان.

وفي «المسند»[1] عن واثلةَ بنِ الأسقعِ، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «نَزَلَتْ صُحُفُ إبراهِيمَ في أوَّل ليلةٍ مِن شَهْرِ رَمَضَانَ، وأُنزِلَتْ التَّوراةُ لستٍّ مَضَيْنَ مِن رَمَضَان، وأُنزِلَ الإنجيلُ لثلاثَ عشرةَ من رَمَضَانَ، وأُنزِلَ القرآن[2] لأربعٍ وعشرين خلَتْ مِن رمضانَ». وقد كان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضانَ بالليل أكثرَ من غيره، وقد صلَّى معه حُذَيْفَةُ ليلةً في رَمَضانَ، قال: فقرأ بالبقرة، ثم النِّساء، ثم آلِ عمران، لا يَمُرُّ بآيةِ تخويفٍ إلَّا وقف وسأل. قال: فما صلَّى الرَّكْعَتَيْن[3] حتى جاءه بلالٌ فآذنه بالصَّلاة. خرَّجه الإمام أحمد[4]، وخرَّجه النسائي، وعنده: أنه ما صلَّى إلا أربعَ رَكَعَاتٍ.

وكان عُمَرُ قد أمر أُبيَّ بن كعبٍ وتميماً الدارِيَّ أن يَقوما بالنَّاس في شهر رمضانَ، فكان القارئُ يقرأُ بالمائتين في ركعةٍ، حتى كانوا يعتمدون على العِصِيِّ من طُول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر. وفي روايةٍ: أنَّهم كانوا يربطون الحبال بين السَّواري، ثم يتعلَّقون بها. ورُوي أنَّ عُمَرَ جَمَعَ ثلاثةَ قُرَّاء، فأمر أسْرَعَهُم قِراءةً أن يقرأَ بالنَّاس ثلاثين، وأوسطَهُم بخمسٍ وعشرين، وأبطأهم بعشرين. ثم كان في زمن التابعين يقرؤون بالبَقرة في قيامِ رمضانَ في ثمان ركعاتٍ، فإنْ قرأ بها في اثنتي عشرةَ ركعةً رأوْا أنَّه قد خَفَّفَ. قال ابنُ منصور: سُئلَ إسحاق[5] بن رَاهَوَيْه: كم يُقرأ في قيام شهر رمضانَ؟ فلم يرخِّصْ في دون عشر آياتٍ. فقيل له: إنهم لا يرضون. فقال لا رَضُوا، فلا تؤمَّهم[6] إذا لم يَرْضوا بعشر آيات من البقرة، ثم إذا صرْتَ إلى الآيات الخِفاف فبقدر عشر آياتٍ من البقرة، يعني في كُلِّ ركعةٍ. وكذلك كرِه مالكٌ أن يُقْرأَ دون عشر آياتٍ.

---

[1] مسند أحمد ١٠٧/٤. [2] في المسند: «الفرقان». [3] في آ: «ركعتين». [4] مسند أحمد ٤٠٠/٥، والنسائي ٢٢٤/٢ في التطبيق، باب رقم (٧٤). [5] في آ، ش، ع: «إسحاق، يعني ابن راهويه». [6] في ش، ع: «فلا تلزمهم»، وفي ط: «فلا تؤمنهم».

وسئل الإمام أحمد عمَّا روي عن عُمَرَ كما تقدَّمَ ذِكرُه في السَّريعِ القراءةِ والبطيءِ؟ فقال: في هذا مشقة على الناس ولا سيّما في هذه الليالي القصار. وإنَّما الأمر على ما يحتمله الناس. وقال أحمد لبعض أصحابه، وكان يصلِّي بهم في رمضان: هؤلاءِ قومٌ ضَعْفى[1]، اِقْرَأْ خَمْساً، ستاً، سبعاً. قال: فقرأتُ فختمْتُ ليلةَ سبعٍ وعشرين. وقد رُوي عن الحسن: أنَّ الذي أمرَهُ عُمَرُ أن يُصلِّيَ بالناس كان يقرأ خمْسَ آيات، ستَّ آياتٍ. وكلامُ الإمام أحمدَ يدلّ على أنه يُراعَى في القراءة حالُ المأمومين، فلا يشقُّ عليهم. وقاله أيضاً غيرُه من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفَةَ وغيرِهم. وقد رُوِي عن أبي ذَرٍّ «أنَّ النبيَّ ﷺ قام بهم لَيْلَةَ ثلاثٍ وعشرين إلى ثُلُثِ الليل، وليلةَ خمسٍ وعشرين إلى نِصْفِ الليل. فقالوا له: لو نَفَّلْتَنا بقيَّة ليلتنا؟ فقال: «إنَّ الرجُلَ إذا صلَّى مَعَ الإمام حتَّى ينصرِفَ كُتِبَ له بقيَّةُ ليلته». خرَّجَهُ أهلُ السُّنن[2]، وحسَّنَهُ الترمذِيّ.

وهذا يدلُّ على أنَّ قيامَ ثُلُثِ الليلِ ونِصْفِه يُكتبُ به قيامُ ليلةٍ، لكن مع الإمام.

وكان الإمام أحمدُ يأخذ بهذا الحديث ويُصلِّي مع الإمام حتى ينصرِفَ، ولا ينصرِفُ حتى ينصرِفَ الإمام. وقال بعضُ السَّلفِ: من قام نصفَ الليل فقد قام اللَّيلَ.

وفي سُنن أبي داود[3]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ، قال:

---

[1] في آ، ع: «ضعفاء». وكلاهما صحيح. ويجمع ضعيف على ضُعَفاء وضَعْفَى، وضِعاف، وضَعَفَة، وضَعَافَى. [2] من حديث طويل في «جامع الأصول» ٦/١٢٠، وقد أخرجه أبو داود رقم (١٣٧٥) في الصلاة: باب في قيام شهر رمضان؛ والترمذي رقم (٨٠٦) في الصوم: باب ما جاء في قيام شهر رمضان؛ والنسائي ٣/٨٣، ٨٤ في السهو: باب ثواب من صلَّى مع الإمام حتى ينصرف، وفي قيام الليل: باب قيام شهر رمضان. إسناده صحيح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ونص الحديث عند أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه، قال: صُمْنا مع رسول الله ﷺ رمضانَ، فلم يَقُمْ بنا حتى بقي سبعٌ من الشهر، فقام بنا حتى ذهَبَ ثلث الليل، ثم لم يقم بنا في السادسة، وقام بنا في الخامسة حتى ذهب شطر الليل. فقلنا له: يا رسولَ الله! نفَّلْتنا بقيَّة ليلتنا هذه. قال: «إنَّه مَنْ قامَ مَعَ الإمام حتى ينصرفَ كُتِبَ له قيامُ ليلةٍ». ثم لم يقم بنا حتى بقي ثلاث ليال من الشهر، فصلَّى بنا في الثالثة، ودعا أهلَه ونساءَه، فقام بنا حتى تخوَّفْنا الفلاح. قلت: وما الفلاحُ؟ قال: السَّحور. ومعنى نَفَّلْتنا: زِدْتَنا، والنافلة: الصلاة الزائدة على الفريضة. [3] رقم (١٣٩٨) في الصلاة: باب تحزيب القرآن، وإسناده حسن. وانظر «صحيح الجامع الصغير وزياداته» ص ١٠٩٩.

«مَنْ قام بعَشْرِ آياتٍ لم يُكْتَبْ مِن الغافِلين، ومَنْ قام بمائةِ آيةٍ كُتِبَ من القانِتين، ومَن قام بألفِ آيةٍ كُتِبَ من المُقَنْطِرينَ». يعني أنه يُكتَبُ له قنطارٌ من الأجْر. ويُروى من حديث تميم وأنسٍ مرفوعاً: «مَن قرأ بمائةِ آيةٍ في ليلةٍ كُتِبَ له قيامُ ليلةٍ»[1]. وفي إسنادهما ضعفٌ. ورُوي حديث تميمٍ موقوفاً عليه، وهو أصحُّ.

وعن ابن مسعود، قال: «مَن قرأ في ليلةٍ خمسين آيةً لم يُكْتَبْ مِن الغافلين، ومن قرأ مائة[2] آيةٍ كُتِبَ من القانتين، ومَن قرأ ثلاثمائة آيةٍ كُتِبَ له قِنْطَارٌ»[3].

ومَن أراد أن يزيدَ في القراءة ويُطيلَ، وكان يُصَلِّي لنفسه فليطوِّلْ ما شاء، كما قاله النبي ﷺ. وكذلك من صلَّى بجماعةٍ يرضَونَ بصلاتِهِ. وكان بعضُ السَّلف يختِمُ في قيام رمضان في كُلِّ ثلاث ليال، وبعضُهم في كُلِّ سبْعٍ؛ منهم قتادَةُ. وبعضُهم في كُلِّ عشر؛ منهم أبو رَجاءٍ العُطَارِدِيُّ[4]. وكان السَّلَفُ يتلون القرآنَ في شهر رمضان في الصلاة وغيرِها؛ كان الأسْوَدُ يقرأ القرآنَ في كُلِّ ليلتين في رمضان، وكان النَّخعِيُّ يفعلُ ذلك في العشر الأواخر منه خاصَّةً، وفي بقيَّةِ الشَّهْر في ثلاثٍ. وكان قتادة يختِمُ في كُلِّ سبْعٍ دائماً، وفي رمضانَ في كُلِّ ثلاثٍ، وفي العشرِ الأواخِرِ كلَّ ليلةٍ. وكان للشافعي في رمضان ستون ختمةً يقرؤها في غير الصَّلاة. وعن أبي حنيفة نحوُه. وكان قتادَةُ يدرُسُ القرآنَ في شهر رمضان. وكان الزُّهْرِيُّ إذا دخل رمضانُ قال: فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام.

قال ابنُ عبد الحَكم: كان مالِكٌ إذا دَخَلَ رمضانُ نفرَ[5] من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبَلَ على تلاوة القرآن من المصحف. وقال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري إذا دَخَلَ رمضانُ ترَكَ جميعَ العبادةِ وأقبَلَ على تلاوة[6] القرآن. وكانت

---

[1] رواه أحمد في «مسنده» ٤/١٠٣ بلفظ «له قنوت ليلة». وانظر الأحاديث الصحيحة رقم ٦٤٤، و «صحيح الجامع الصغير» ص١١٠٣. [2] في ب، ط: «بمائة آية». [3] أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/٢٦٨ وزاد في آخره: «ومن قرأ بسبعمائة أفلح». وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات». [4] هو عمران بن مِلْحان، ويقال: ابن تميم، أبو رجاء العُطَاردي، مشهور بكنيته، وقيل غير ذلك في اسم أبيه. مخضرم، ثقة، مات سنة ١٠٥ هـ وله مائة وعشرون سنة. (التقريب ٢/٨٥). [5] في آ، ب، ط: «يفِرُّ»، وأثبت ما جاء في (ش، ع). [6] في ط: «قراءة».

عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أوَّلَ النهار في شهرِ رمضانَ، فإذا طلعت الشمس نامَتْ[1]. وقال سفيان: كان زُبيدٌ اليامِيُّ [2] إذا حضر رمضانُ أحضرَ المصاحِفَ، وجمَعَ إليه أصحابَه. وإنما وَرَدَ النَّهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاثٍ على المداومة على ذلك. فأمَّا في الأوقات المفضَّلة، كشهر رمضان، خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلةَ القَدْر، أو في الأماكن المفضلة، كمكَّة [شرَّفها الله] [3]، لمن دخلَها مِن غير أهلِها، فيُستحبُّ الإكثار فيها من تلاوة القرآن، اغتناماً للزمان والمكان. وهذا قولُ أحمدَ وإسحاقَ وغيرِهما من الأئمة، وعليه يدلّ عملُ غيرهم، كما سبق ذكره.

واعلم أنَّ المؤمن يجتمع له في شهر رمضانَ جهادان لنفسِهِ؛ جهادٌ بالنهار على الصِّيام، وجهادٌ بالليل على القيام. فمن جمَعَ بين هذين الجهادين، ووفَّى بحقوقهما، وصبرَ عليهما، وُفِّي أجرُه بغير حساب. قال كعبٌ: ينادي يومَ القيامةِ منادٍ: إنَّ كُلَّ حارثٍ يُعطى بحرثه ويُزاد غَيْرَ أهل القرآنِ والصِّيام[4]، يُعْطَون أجورَهم بغير حساب، ويشفعان له أيضاً عند الله عزَّ وجلَّ، كما في «المسند»[5] عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال: «الصِّيامُ والقرآن[6] يَشْفَعَانِ للعَبْد يَوْمَ القيامة؛ يقولُ الصِّيامُ: أيْ ربِّ! مَنَعْتُه الطَّعامَ والشهوات [7] بالنَّهار. ويقول القرآنُ: مَنَعْتُهُ النَّومَ باللَّيل فَشَفِّعْني فيه، فَيُشَفَّعانِ». فالصيام يشفَعُ لمن منعه الطعام والشهواتِ المحرَّمَة كُلّها، سواءٌ كان تحريمها يختصُّ بالصِّيام، كشهوةِ الطعام، والشَّراب، والنِّكاح، ومقدماتها، أَوْ لا يختص به، كشهوة فضول الكلام المحرَّم، والنظر المحرَّم، والسَّماع المحرَّم،

---

[1] في ع: «قامت». [2] لفظة «اليامي» سقطت في آ، ش. وهو زُبَيد بن الحارث بن عبد الكريم اليامي، أبو عبد الرحمٰن الكوفي. ثقة ثبت، عابد، مات سنة ١٢٢ هـ، أو بعدها. (التقريب ١/٢٥٧).
[3] زيادة من نسخة (آ). [4] في ع: «والصُّوَّام». [5] رواه أحمد في «المسند» ٢/١٧٤ وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٨١ وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال الطبراني رجال الصحيح». [6] في الأصول والمطبوع: «والقيام»، وقد صحح من المسند، وهو ما يقتضيه السياق. [7] في ش: «والشهوات بالنار»، وفي ع: «والشهوات المحرمة بالنار»، وفي آ: «منعته النوم بالليل والشهوات بالنهار»، وفي ب، ط: «والشراب بالنهار»، وصحح من المسند.

والكَسْب المحرَّم؛ فإذا منعه الصِّيامُ من هذه المحرَّمات كلِّها، فإنه يشفَعُ له عند الله يوم القيامة، ويقول: يا ربِّ! منعتُه شهواتِه، فشفِّعْني فيه. فهذا لمن حفظ صِيامَه، ومنَعَه من شهواتِهِ.

فأمَّا مَن ضيَّع صِيامَهُ ولم يمنعْه ممَّا حرَّمه الله عليه، فإنَّه جديرٌ أن يُضربَ به وجهُ صاحبِه؛ ويقولُ له: ضيَّعكَ الله كما ضيعتني. كما ورد مثلُ ذلك في الصَّلاة. قال بعضُ السَّلف: إذا احتضر المؤمن، يقال للملَكِ: شُمَّ رأسَهُ. قال: أجِدُ في رأسه القرآن. فيقال: شُمَّ قلبَه. فيقول: أجِدُ في قلبه الصِّيام، فيقال: شُمَّ قدَمَيْهِ، فيقول: أجِدُ في قدمَيْه القيامَ. فيقال: حَفِظَ نفْسَه حفِظَه اللهُ عزَّ وجلَّ.

وكذلك القرآن إنما يشفَعُ لمن منعه من النوم بالليل، فإن مَن قرأ القرآنَ وقام به، فقد قام بحقِّه فيشفَعُ له.

وقد ذكر النبي ﷺ رجلاً، فقال: «ذاك لا يتوسَّدُ القرآن»[1]. يعني لا ينام عليه فيصيرُ له كالوسادة.

وخرَّج الإمام أحمد[2] من حديث بُرَيْدَةَ مرفوعاً: «إنَّ القرآن يَلْقَى صاحبَهُ يومَ القيامةِ حين ينشَقُّ عنه قبرُه، كالرَّجُل الشاحِبِ[3]، فيقول: هل تعرِفني؟ أنا صاحِبُكَ الذي أظمأْتُكَ في الهَواجِرِ، وأسهَرْتُ ليلَكَ، وكُلُّ تاجرٍ من وَرَاءِ تجارته؛ فيُعْطَى المُلْكَ بيمينه، والخُلْدَ بشِمالِهِ، ويوضَعُ على رأسه تاجُ الوَقَارِ، ثم يقال له: اقرأْ واصْعَدْ في دَرَجِ الجنَّة وغُرَفِها، فهو في صُعُودٍ ما دام يقرأُ؛ هذًّا[4] كان أو ترتيلاً». وفي حديث عُبَادَةَ بن الصَّامت الطويل: «إن القرآن يأتي صاحِبَه في القبر، فيقول له: أنا الذي كُنْتُ أُسْهِرُ ليلَكَ، وأُظْمِىء نهارَكَ، وأمنَعُكَ شهواتك[5]، وسَمْعَكَ وبَصَرَكَ؛ فستجدُني من الأخلاَّءِ خليلَ صِدْقٍ. ثم يَصْعَدُ فيَسألُ له فراشاً ودثاراً، فيؤمَرُ له بفراشٍ

---

[1] مسند أحمد ٣/٤٤٩. [2] رواه الإمام أحمد في «المسند» ٥/٣٤٨ مطولاً، وانظر «كنز العمال» ١/٢٥٧٨. [3] الشاحب: المتغير اللون. [4] الهَذُّ: سُرْعَةُ القَطْع، وسُرْعَةُ القراءة. [5] في ب، ش، ط: «شهوتك».

من الجنَّةِ، وقِنديلٍ من الجنَّة، وياسمينٍ من الجنَّة. ثم يُدفَعُ القرآنُ في قِبْلَةِ القَبْرِ، فيوسع عليه ما شاء اللهُ من ذلك».

قال ابنُ مسعودٍ: ينبغي لقارىء القرآن أن يُعرَفَ بليله إذا الناس ينامون[1]، وبنهاره إذا الناس يُفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعِهِ إذا الناسُ يخلطون، وبصمْتِه إذا الناس يَخُوضون، وبخُشوعِه إذا الناس يختالون، وبحُزْنـه إذا الناسُ يَفرحُون.

قال محمد بن كعب[2]: كنَّا نعرِفُ قارىء القرآن بصُفْرة[3] لونه. يشير إلى سهرِه وطولِ تهجُّدِه.

قال وُهَيْب بن الوَرْد[4]: قِيل لرجلٍ: ألا تنامُ؟ قال: إنَّ عجائبَ القرآن أَطَرْنَ نومي. وصحِبَ رجلٌ رجلاً شهرين، فلم يَرَهُ نائماً، فقال: ما لي لا أراك نائماً؟ قال: إنَّ عجائبَ القرآنِ أطرْنَ نومِي؛ ما أخرُجُ مِن أعجُوبةٍ إلاَّ وقعْتُ في أُخرى.

قال أحمدُ بنُ أبي الحَوَاري: إنِّي لاقرأ القرآنَ وأنظُرُ في آيةٍ آيةٍ، فيحير[5] عقلي بها، وأَعجَبُ مِن حُفَّاظِ القرآن كيفَ يُهنيهم النومُ، ويسَعُهُم أن يشتغِلوا بشيءٍ من الدنيا، وهم يتلون كلامَ الله؟ أَمَا إنَّهم لو فهِموا ما يتلون وعرفوا حقَّه، وتلذَّذوا به، واستَحْلُوا المناجاة به، لذَهَبَ عنهم النومُ فرحاً بما قد رُزقوا. وأنشد ذو النون [المصري][6]:

منع القرانُ بوعدِهِ ووعيدِهِ ... مُقَلَ العُيُونِ بليلِها لا تهجعُ
فَهِمُوا عن الملِكِ العظيم كلامَه ... فهماً تذِلُّ له الرِّقابُ وتَخْضَعُ

---

[1] في ب، ط: «نائمون». [2] هو محمد بن كعب القُرَظي، أبو حمزة، المدني، نزل الكوفة مدة، ثقة، عالم. مات نحو سنة ١٢٠ هـ. ومن أقواله: «من قرأ القرآن مُتِّع بعقله وإن بلغ مائتي سنة». (صفة الصفوة ٢/١٣٢، سير أعلام النبلاء ٥/٦٥). [3] في آ، ش، ع: «بصفرة اللون». [4] وُهَيْب بن الورد، أبو أميَّة، وقيل: أبو عثمان المكي، العابد الرَّبَّاني، زاهد، ثقة. قيل لوهيب: أيَجدُ طعمَ العبادة من يعصي الله؟ قال: لا، ولا من يهمّ بالمعصية. مات وهيب سنة ١٥٣ هـ. (صفة الصفوة ٢/٢١٨ - ٢٢٧). [5] في آ: «فيحار». [6] تكملة من ب، ط.

فأمَّا من كان معَهُ القرآن فنام عنه بالليل ولم يَعْمَلْ به بالنهار، فإنَّه ينتصبُ القرآنُ خَصْماً له، يطالبُه بحُقوقِه التي ضيَّعها. وخرَّج الإمام أحمد[1] من حديث سَمُرَةَ: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في مَنامِه رجلاً مستلقياً على قَفَاهُ، ورجلٌ قائِمٌ بيدِه فِهْرٌ[2] أو صَخْرةٌ، فيشْدَخُ بهِ رأسَه، فيتَدَهْدَهُ[3] الحَجَرُ، فإذا ذَهَبَ ليأخُذَهُ عادَ رأسُهُ كما كان، فيَصْنَعُ به مثلَ ذلك، فسألَ عنه، فقيل له: هذا رَجُلٌ آتاهُ الله القرآن فنامَ عنه باللَّيل، ولم يَعْمَلْ به بالنَّهارِ، فهو يَفْعَلُ به ذلك إلى يوم القيامة».

وقد خرَّجَهُ البخاريُّ[4] بغير هذا اللفظ.

وفي حديث عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جدِّه، عن النَّبيِّ ﷺ: «يُمثَّلُ القرآنُ يومَ القيامة رجُلاً، فيُؤتَى بالرجُلِ قد حَمَلَهُ فخالَفَ أمرَهُ، فيتمثَّلُ له خَصْماً، فيقول: يا ربِّ! حَمَّلْتَهُ إيايَ؛ فبئسَ حاملُ تعدَّى حُدودي، وضيَّع فرائضي، وركِبَ مَعْصِيَتي، وتَرَكَ طاعتي. فما يَزالُ يقذِفُ عليه بالحُجَجِ حتى يُقالَ: شأنَكَ به، فيأخُذُ بيدِهِ، فما يُرْسِلُهُ حتَّى يَكُبَّهُ على مَنْخِرِه في النار.

ويُؤتى بالرَّجل الصَّالح كان قد حملَهُ وحفِظَ أمرَهُ، فيتمثَّلُ[5] خَصْماً دونَهُ، فيقول: يا ربِّ! حَمَّلْتَهُ إيَّايَ، فخيرُ حاملٍ؛ حفِظَ حُدودِي، وعَمِلَ بفرائضي، واجْتنَبَ معصيتي، واتَّبَعَ طاعتِي، فلا يَزالُ يَقذِفُ له بالحُجَج حتَّى يقالَ: شأنَكَ به، فيأخُذُ بيدِه، فما يُرسِلُهُ حتَّى يُلبِسَهُ حُلَّة الاسْتبرقِ، وَيَعْقِدَ عليه تاجَ المُلْكِ، ويسقِيَهُ كأسَ الخَمْرِ»[6].

يا مَنْ ضيَّع عُمُرَهُ في غير الطاعة! يا مَن فَرَّط في شَهْرِه، بَلْ في دهرِه وأضَاعَه! يا مَن بضاعتُه التسويفُ والتفريط، وبئست البضاعَة! يا مَن جَعَلَ خَصْمَهُ القرآنَ وشَهْرَ رمضانَ، كيفَ ترجو مِمَّن جَعَلْتَه خَصْمَكَ الشَّفَاعَة؟!

---

[1] من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ٥/١٤. [2] الفِهْرُ: الحجر ملءُ الكفِّ. وقيل: الحجر مطلقاً. (النهاية ٣/٤٨١). [3] يتدهدَهُ الحجر، ويتدهْدَى: يتدحرج. (النهاية ٢/١٤٣). [4] البخاري ٣/٢٥١ في الجنائز: باب (٩٣) رقم (١٣٨٦). [5] في آ، ش، ع: «فيمثّل». [6] أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ١٠/٤٩١، وأبو نعيم في «الحلية» ٢/٢٢٠ من طريق ابن أبي شيبة، والهندي في «الكنز» ١/٥٤٦.

ويـلٌ لـمـن شـفـعـاؤه خُـصـمـاؤهُ والصُّـورُ في يـومِ القيـامـةِ يُنْفَـخُ

رُبَّ صائمٍ حظُّه مِن صيامه الجوعُ والعطَشُ، وقائمٍ حظُّه مِن قيامِهِ السَّهَرُ. كُلُّ قيامٍ لا ينهَى عن الفحشاءِ والمنكر لا يزيدُ صاحبَه إلا بُعْداً، وكُلُّ صِيامٍ لا يُصانُ عن قَوْلِ الزُّورِ والعَمَلِ به لا يورِثُ صاحبَه إلاَّ مَقْتاً وَرَدًّا.

يا قوم! أين آثارُ الصيام؟ أينَ أنوارُ القِيام؟

إنْ كُنْتَ تَـنُـوحُ يـا حَـمـامَ الـبـانِ لـلـبِـيـن فـأيـنَ شـاهِـدُ الأحـزانِ
أجـفـانُـكَ لـلدُّمـوعِ أمْ أجـفـانـي لا يُـقـبَـلُ مُـدَّعٍ بـلا بُـرهـانِ

هذا ـ عبادَ الله ـ شهْرُ رمضانَ الذي أنزِلَ فيه القرآنُ وفي بقيته للعابدين مستمتع. وهذا كتابُ الله يُتلَى فيه بين أظهركم ويُسْمَع. وهو القرآن الذي لو أُنزل على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً يتصدَّعْ. ومع هذا فلا قلبٌ يخشَعْ، ولا عَيْنٌ تدمَعْ، ولا صِيامٌ يُصانُ عن الحرام فينفَعْ[1]! ولا قيامٌ استقام فيُرجى في صاحبه أن يشفَعْ! قلوبٌ خلَتْ من التَّقْوَى فهيَ خرابٌ بلقَعْ، وتراكَمَتْ عليها ظلمةُ الذُّنوب فهي لا تُبصِرُ ولا تسْمَعْ. كم تُتلَى علينا آياتُ القرآن وقلوبُنا كالحجارة أو أشدُّ قَسْوةً. وكم يتوالى علينا شَهْرُ رمضانَ وحالُنا فيه كحالِ أهلِ الشِّقوة: لا الشَّابُ منَّا ينتهي عن الصَّبْوةِ، ولا الشَّيخُ ينزجِرُ عن القبيح فيلتحق[2] بالصفوة. أين نحن من قومٍ إذا سمِعُوا داعيَ اللهِ أجابُوا الدَّعْوَه، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُ اللهِ جَلَتْ قلوبَهم جَلْوَه، وإذا صامُوا صامَتْ منهم الألسنَةُ والأسماعُ والأبصار؟ أفما لنا فيهم أسوَه؟! كم بيننا وبين حال أهل الصَّفا أبعد مما بيننا وبين الصَّفا والمَرْوَه. كلما حسُنَتْ منَّا الأقوال ساءت الأعمالُ. فلا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم [وحسبنا الله][3].

يـا نفسُ فـازَ الصـالحُـون بـالتُّقَى وأبـصَـرُوا الحـقَّ وقلبـي قـد عمِـي
يـا حُـسْنَـهم والـلَّيـلُ قـد جـنَّـهُـم ونـورُهـم يـفـوقُ نـورَ الأنـجُـمِ

---

[1] في آ: «فيشفع». [2] في آ: «ليلحق»، وفي ع: «فيلحق». [3] زيادة من ب، ط.

تـرنَّـمـوا بـالـذِّكْـر فـي لـيـلِهـم ... فـعـيـشُـهـم قـد طـابَ بـالـتَّـرنُّـمِ
قـلـوبُـهـم لـلذِّكْـر قـد تـفـرَّغَـتْ ... دمـوعُـهُـمْ كـلؤلـؤٍ مـنـتـظمِ[1]
أسحـارهُم بهم لـهم قـد أشـرقَـتْ ... وخِـلَـعُ الـغُـفْـرانِ خَـيـرُ الـقِـسَـمِ
وَيْـحَـكِ يـا نَـفْسُ ألا تَـيَـقُّظ ... يـنـفَـعُ قـبـل أن تـزِلَّ قـدمِـي
مـضَى الـزَّمـانُ فـي تـوانٍ وهَـوًى ... فـآسْـتَـدْرِكي مـا قَـدْ بَقِي وآغْتَنِمِي

* * *

المجلس الثالث
في ذكر العشر الأوسط من شهر رمضان
وذكر[2] نصف الشهر الأخير

في الصحيحين[3] عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ الله ﷺ يعتكِفُ في العَشْرِ الأَوْسَطِ من رمضانَ، فاعْتَكَفَ عاماً، حتَّى إذا كانت ليلةُ إحدى وعشرينَ، وهي الليلة التي يخرُجُ في صَبِيحتِها من آعْتِكافِهِ، قال: «مَن كان آعْتَكَفَ معي فَلْيَعْتَكِفِ العَشْرَ الأواخِر. وقد أُرِيتُ هذه الليلة ثم أُنسيتُها، وقد رأَيْتُني أَسْجُدُ في ماءٍ وَطِينٍ من صَبِيحتِها، فالتمسوها في العَشْرِ الأواخر، والتمسوها في كُلِّ وِتْرٍ».

فمطرت السَّماءُ تلكَ الليلةَ، وكان المسجدُ على عَريشٍ[4]، فَوَكَفَ المَسْجِدُ، فبصُرَتْ عيناىَ رسولَ الله ﷺ على جَبْهَتِهِ أثَرُ الماءِ والطِّينِ من صُبْحِ إحْدَى وعشرين. هذا الحديث يدلُّ على أنَّ النبي ﷺ كان يعتكِفُ العَشْرَ الأوسَطَ من شهر رمضان؛

---

[1] في ب: «مُنْظم». [2] في آ: «وذكر النصف الأخير». [3] أخرجه البخاري رقم (٨١٣) في صفة الصلاة: باب السجود على الأنف في الطين، و (٢٠١٦) في فضل ليلة القدر: باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، و (٢٠١٨) باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر، و (٢٠٢٧) في الاعتكاف: باب الاعتكاف في العشر الأواخر، و (٢٠٣٦) باب الاعتكاف وخروج النبي صبيحة عشرين، و (٢٠٤٠) باب من خرج من اعتكافه عند الصبح. وخرجه مسلم رقم (١١٦٧) في الصوم: باب فضل ليلة القدر. [4] العريش: سقف من خشب وحشيش ونحو ذلك. ووكف المسجدُ: قطر ماء المطر من سقفه.

لابتغاء ليلة القدرِ فيه. وهذا السِّياق يقتضي أنَّ ذلك تكرَّر منه ﷺ.

وفي رواية في الصحيحين[1] في هذا الحديث: «أنه اعتكَفَ العَشْرَ الأوَّلَ، ثم آعتكَفَ العَشْرَ الأوْسَطَ، ثم قال: إني أُتِيتُ، فقيل لي: إنها في العشر الأواخر. فمن أحَبَّ منكم أن يعتكِفَ فليعْتَكِفْ. فاعتكفَ الناسُ معه».

وهذا يدلُّ على أنَّ ذلك كان منه قبلَ أن يتبيَّن لَهُ أنَّها في العَشْر الأواخر، ثم لمَّا تبيَّن له ذلك اعتكفَ العشر الأواخرَ حتَّى قبضَه اللهُ عزَّ وجلَّ. كما رواه[2] عنه عائشة وأبو هريرة وغيُرهما.

ورُوي أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه جمع جماعةً من الصحابة، فسألَهم عن ليلةِ القَدْر، فقال بعضُهم: كنَّا نراها في العشر الأوسط، ثم بلغنا أنَّها في العشرِ الأواخر. وسيأتي الحديثُ بتمامه في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

وخرَّج ابنُ أبي عاصمٍ[3] في «**كتاب الصيام**» وغيره من حديث خالد بن مَحْدُوج[4]، عن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «التمِسُوها في أوَّل لَيْلَةٍ، أو في تِسْعٍ، أو في أربعَ عشْرَةَ». وخالدٌ هذا فيه ضعفٌ. وهذا يدلُّ على أنَّها تُطلبُ في ليلتين من العشر الأوَّل، وفي ليلةٍ من العشر الأوسطِ، وهي أربعَ عشْرَةَ. وقد سبقَ[5] من حديث واثِلَةَ بن الأسقع مرفوعاً: «إن الإنجيلَ أُنزِل لثلاثَ عشرَةَ من رمضانَ». وقد ورد الأمر بطلب ليلةِ القَدْر في النصف الأواخر من رمضانَ، وفي أفرادِ ما بقي من العشر الأوسط

---

[1] أخرجه البخاري ٢/٢٩٨ في صفة الصلاة: باب السجود على الأنف والطين، و٤/٢٥٦ في فضل ليلة القدر، ومسلم رقم (١١٦٧) (٢١٥) في الصيام: باب فضل ليلة القدر. [2] في آ، ش: «رَوته». [3] هو أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك، ابن مخلد الشيباني، أبو بكر بن أبي عاصم النَّبيل. عالم بالحديث، زاهد، رحالة، من أهل البصرة، ولي قضاء أصبهان من سنة ٢٦٩ ـ ٢٨٢ هـ. له نحو ٣٠٠ مصنف، ذهبت كتبه في فتنة الزنج فأعاد من حفظه خمسين ألف حديث. مات سنة ٢٨٧ هـ. (سير أعلام النبلاء ١٣/٤٣٠، تذكرة الحفاظ ١/٦٤٠). [4] في ب، ش، ع: «خالد بن مخدوج». وهو خالد بن مَحْدوج، ويقال: خالد بن مقدوح، واسطي. قال الذهبي في «ميزان الاعتدال»: رماه يزيد بن هارون بالكذب. وقال أبو حاتم: ليس بشيء، ضعيف جداً. وقال النسائي: متروك. وقال ابن عدي: يكنى أبا روح.. [5] الأسماء والصفات للبيهقي ص ٢٣٤.

من هذا النصف، وهما ليلتان: ليلةُ سبعَ عشرَةَ، وليلةُ تسعَ عشرَةَ.

أمَّا الأوَّلُ: فخرَّجه الطبراني[1] من حديث عبد الله بن أُنَيسٍ، أنه سأل النبيَّ ﷺ عن ليلةِ القدر، فقال: «رأيتُها ونسِيتُها[2]، فتحَرَّها في النِّصْف الأواخر. ثم عاد فسأله، فقال: التمسْها في ليلةِ ثلاثٍ وعشرين تَمضِي مِن الشهر».

ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ كان أبيّ بن كَعب يَقنُتُ في الوِتر في ليالي النصف الأواخر؛ لأنَّه يُرجَى فيه ليلة القدر.

وأيضاً فكُلُّ زمانٍ فاضلٍ من ليلٍ أو نهارٍ، فإنّ آخِرَه أفضَلُ من أوَّلِه، كيومِ عَرَفَةَ، ويومِ الجُمُعة. وكذلك اللَّيلُ والنَّهار عموماً؛ آخِرُهُ أفضَلُ من أوَّلِه. ولذلك كانت الصلاةُ الوسطى صلاةَ العَصْر، كما دلَّت الأحاديثُ الصَّحيحةُ عليه، وآثارُ السَّلفِ الكثيرة تدُلُّ عليه. وكذلك عشْرُ ذي الحجة والمحرم؛ آخِرُهُما أفضَلُ من أوَّلهما.

وأمَّا الثاني: ففي «سنن أبي داود»[3] عن ابن مسعود مرفوعاً: «اطْلُبُوها ليلةَ سبْعَ عشْرَةَ مِن رَمَضانَ، وليلةَ إحدَى وعشرين، وليلَةَ ثلاثٍ وعشرين»، ثم سَكَتَ. وفي روايةٍ: «ليلةَ تسعَ عشْرَةَ». وقيل: إنَّ الصحيح وقْفُه على ابنِ مسعودٍ، فقد صَحَّ عنه أنَّه قال: تحرُّوا ليلةَ القَدْرِ ليلةَ سَبْعَ عَشْرَةَ، صباحِيَّةَ[4] بدْرٍ، أو إحدى وعشرين. وفي روايةٍ عنه، قال: «ليلةَ سَبْعَ عَشْرَةَ، فإنْ لم يكن ففي تسْعَ عَشْرَةَ».

---

[1] في كنز العمال (٢٤٠٤٥) و (٢٤٠٨٢) و (٢٤٠٨٣) وعزاه إلى الطبراني في الكبير. وقال السيوطي في «الدر» ٣٧٣/٦: أخرجه مالك، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وابن زنجويه، والطحاوي، والبيهقي، عن عبد الله بن أُنيس أنه سئل عن ليلة القدر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها الليلة» وتلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين. وروى مسلم في أفراده رقم (١١٦٨) من حديث عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ قال: أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني صُبْحَها أسجد في ماء وطين» قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين. [2] في ب: «وأنسِيتها». [3] رقم (١٣٨٤) في الصلاة، باب من روى أنها ليلة سبع عشرة. وإسناده حسن، كما في حاشية «جامع الأصول» ٢٥٥/٩. قال المنذري: في سنده حكيم بن سيف، وفيه مقال. [4] في آ: «صبيحة»، وفي ش، ع: «صباحة».

وخرَّج الطبراني[1] من رواية أبي المُهَزِّم[2]، وهو ضعيفٌ، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «التمِسُوا ليلَةَ القَدْرِ في سَبْعَ عَشْرَةَ أو تِسْعَ عَشْرَةَ، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثٍ وعشرين، أو خمسٍ وعشرين، أو سبعٍ وعشرين، أو تسعٍ وعشرين». ففي هذا الحديث: التماسُها في أفرادِ النصف الثاني كلِّها[3]. ويُروى من حديثِ عائشة رضي الله عنها، أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا كان ليلة تسعَ عَشْرَةَ مِن رَمَضَانَ شَدَّ المئزرَ وهَجَرَ الفِراشَ حتى يُفطِرَ.

قال البخاري[4]: تفرَّد به عُمَرُ بن مسكينٍ، ولا يتابَع عليه. وقد روي عن طائفةٍ من الصحابة أنَّها تُطْلَبُ ليلةَ سبعَ عَشْرَةَ، وقالوا: إن صبيحتها كان يوم بدرٍ. روي عن علي، وابن مسعود، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وعمرو بن حريث. ومنهم من رُوي عنه، أنَّها ليلةُ تسعَ عشرةَ؛ رُوي عن علي، وابن مسعودٍ، وزيد بن أرقم.

والمشهور عند أهل السِّير والمغازي[5]: أنَّ ليلة بدْرٍ كانت ليلةَ سبعَ عَشْرَةَ، وكانت ليلةَ جُمَعَةٍ. وروي ذلك عن علي، وابن عباسٍ وغيرِهما. وعن[6] ابن عباس، رواية ضعِيفة أنَّها كانت ليلةَ الاثنين. وكان زيد بن ثابتٍ لا يُحيي ليلةً من رمضان، كما يُحيي ليلةَ سبعَ عَشْرَةَ، ويقول: إنَّ الله فرَّق في صبيحتها بين الحقِّ والباطل، وأذلَّ في صبيحتها أئمةَ الكفر. وحكى الإمامُ أحمدُ هذا القولَ عن أهل المدينة: أنَّ ليلةَ القَدْرِ تُطْلَبُ ليلةَ سبعَ عَشْرَةَ. قالَ في رواية أبي داود فيمن قال لامرأته: أنت طالقٌ ليلةَ القَدْر، قال: يعتزِلُها إذا دَخَلَ العَشرُ، وقبل[7] العشر، أهلُ المدينة يرونها في السبعَ عشرةَ، إلَّا أنَّ المثبتَ عن النبي ﷺ في العشْرِ الأواخر. وحكي عن عامر بن عبد الله بن الزُّبير: أنَّه كان يُواصِل ليلةَ سبعَ عَشْرَةَ.

---

[1] أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٧٦/٣ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أبو المهزّم وهو ضعيف». [2] أبو المُهَزِّم التميمي، البصري، اسمه يزيد، وقيل: عبد الرحمن بن سفيان، من الطبقة الثالثة، متروك، ضعفه ابن معين، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال زكريا الساجي: عنده أحاديث مناكير، ليس هو بحجة في السنن. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه ينكر عليه. (تهذيب التهذيب ٢٤٩/١٢). [3] في آ: «كلّه». [4] التاريخ الكبير ١٩٨/٢/٣. (٦) تاريخ الإسلام (المغازي) ص ٥٧. [6] قوله: «وعن ابن عباس» لم يرد في آ [7] في آ، ط: «وقيل».

وعن أهل مكَّةَ أنَّهم كانوا لا ينامون فيها، ويعتمِرون. وحكي عن أبي يوسُفَ ومحمد، صاحِبي أبي حنيفة: أنَّ ليلةَ القَدْر في النصف الأواخر من رمضانَ من غير تعيين لها بليلةٍ، وإن كانت في نفس الأمر عند اللهِ مُعينةً. وروي عن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، قال: ليلةُ القَدْرِ ليلةُ سبْعَ عَشْرَةَ، ليلةُ جُمُعة. خرَّجه ابنُ أبي شيبة[1]. وظاهره أنَّها إنما تكون ليلة القدر إذا كانت ليلةَ جمعةٍ؛ لتُوافق ليلةَ بَدْرٍ. ورَوَى أبو الشيخ الأصبهاني بإسنادٍ جيِّد، عن الحسن، قال: إنَّ غلاماً لعثمان بن أبي العاص، قال له: يا سيدي، إن البحر يعذُبُ في هذا الشهْر في ليلةٍ. قال: فإذا كانت تلك الليلةُ فأعلِمني. قال: فلما كانت تلك الليلة أذنَه، فنظروا فوجدوه عَذباً، فإذا هي ليلةُ سبعَ عَشْرَةَ. ورُوي من حديث جابرٍ، قال: «كان رسولُ الله ﷺ يأتي قُباءً صَبيحةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِن رَمَضَانَ، أيَّ يومٍ كان». خرَّجه أبو موسى المديني.

وقد قيل: إنَّ المعراج كان فيها أيضاً. ذكر ابنُ سَعْدٍ، عن الواقديّ، عن أَشْياخه: أنَّ المعراج كان ليلةَ السبت لسبعَ عشْرَةَ خلت من رمضانَ قبل الهِجْرَة إلى السماء، وأنَّ الإسْرَاء كان ليلةَ سبْعَ عَشْرَةَ من ربيع الأوَّل قبل الهجرة بسنةٍ إلى بيتِ المقدس. وهذا على قول مَن فرَّق بين المِعراج والإسْرَاء؛ فجعَلَ المِعراجَ إلى السَّماء، كما ذُكر في سورة النجم؛ والإسراء إلى بيت المقدس خاصَّةً، كما ذُكر في سورة سبحان.

وقد قيل: إنَّ ابتداء نبوَّةِ النبي ﷺ كان في سابعَ عشَرَ رمضانَ. قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: نَزَلَ جبريلُ على رسول الله ﷺ ليلةَ السبتِ وليلةَ الأحد، ثم ظهر له بحراء برسالة اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ الاثنين لسبعَ عَشْرَةَ خلَتْ مِن رمضانَ. وأصحُّ ما روي في الحوادث في هذه الليلة أنَّها ليلةُ بَدْرٍ، كما سبق أنَّها كانت ليلةَ سبعَ عَشْرَة.

وقيل: تسعَ عشرةَ. والمشهورُ أنَّها كانت ليلةَ سبعَ عَشْرَةَ، كما تقدَّم. وصبيحتُها هو يومُ الفرقان، يوم التقى الجمعان. وسُمي يوم الفرقان؛ لأنَّ الله تعالى فرَّق فيه بين

---

[1] لم أجده في مصنفه.

الحقِّ والباطل، وأظهَرَ الحقَّ وأهلَهُ على الباطل وحِزْبِه، وعلَتْ كلمةُ الله وتوحيدُه، وَذُلَّ أعداؤه مِن المشركين وأهلِ الكِتاب، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة؛ فإنَّ النبي ﷺ قَدِم المدينةَ في ربيع الأول في أوَّل سنةٍ من سني الهجرة، ولم يُفرَضْ رمضان في ذلك العام. ثم صام عاشوراء، وفُرِضَ عليه رمضانُ في ثاني سنةٍ. فهو أوَّل رمضانٍ صامَهُ وصامَه المسلمون معه.

ثم خرَجَ النبيُّ ﷺ لطلبِ عِيرٍ[1] من قريش قدِمَتْ مِن الشام إلى المدينة في يوم السبت لاثنتي عشرَةَ ليلةً خلَتْ من رمضانَ، وأفطَرَ ﷺ في خروجه إليها.

قال ابن المُسَيِّب[2]: قال عُمر: غزونا مع رسولِ الله ﷺ غزوتين في رمضانَ يومَ بدْرٍ، ويومَ الفتح، وأفطرنا فيهما. وكان سببُ خروجه حاجةَ أصحابه، خصوصاً المهاجرين[3] ﴿ الَّذين أُخْرِجُوا مِن ديارهم وأَموالِهِمْ يبتَغُون فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً وينصُرُون اللهَ ورسولَهُ. أولئك هُمُ الصَّادِقُون ﴾[4]. وكانت هذه العِيرُ فيها أموالٌ كثيرة لأعدائهم الكفار الذين[5] أخرجوهم من ديارهم وأموالِهم ظُلماً وعُدواناً، كما قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذين يقاتِلُون بأنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الذين أُخْرِجوا من دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلَّا أن يَقُولوا رَبُّنا اللهُ ﴾[6]. فقصَدَ النَّبيُّ ﷺ أن يأخذ أموالَ هؤلاء الكفّار[7] الظالمين المعتدين على أولياء الله وحزبه وجنده، فيردَّها على أولياء الله وحزبه المظلومين المخرَجين من ديارهم وأموالهم ليتقوّوا بها على عبادَةِ اللهِ وطاعَته وجهادِ أعدائه. وهذا ممَّا أحلَّه الله لهذه الأمَّة؛ فإنَّه أَحَلَّ لهم الغنائم، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلَهم. وكان عِدَّةُ مَن مَعَهُ ثلثمائة وبضعةَ عشَرَ، وكانوا على عدَّةِ أصحابِ طالُوتَ الذين جازوا معه النهر، وما جازَه معه إلَّا مؤمنٌ.

---

[1] في ب، ع: «عير قريش»، وفي ش: «عير لقريش». [2] هو سعيد بن المسيّب بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمِّي راوية عمر، توفي بالمدينة سنة ٩٤ هـ. [3] في ب، ش، ع: «المهاجرون» بالرفع، وكلاهما جائز. [4] سورة الحشر الآية ٨. [5] في آ: «الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً». [6] سورة الحج الآية ٣٩ و ٤٠. [7] لفظ «الكفار» لم يرد في ب، ط.

وفي سنن أبي داود[1] من حديث عبد الله بن عمرٍو، قال: خرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ في ثلاثمائة وخمسةَ عشَرَ مِن المقاتلة، كما خرَجَ طالُوت، فدَعَا لهم رسولُ الله ﷺ حين خرجوا، فقال: «اللهمَّ، إنَّهم حُفَاةٌ فاحْمِلْهُم، وإنَّهم عُرَاةٌ فاكْسُهُم، وإنَّهم جياعٌ فأشْبِعْهُم». ففتح الله يومَ بدْرٍ، فانقلبوا حين انقلبوا وما فيهم رجلٌ إلَّا وقد رجع بجَمَلٍ أو جَمَلَيْن، واكتسوا وشبِعُوا. وكان أصحابُ النبي ﷺ حين خرجوا على غايةٍ مِن قلَّة الظهرِ والزَّاد؛ فإنَّهم لم يخرجوا مستعدِّين لحربٍ، ولا لقتالٍ، إنَّما خرجوا لطلبِ العير، فكان معهم نحو سبعين بعيراً يعتقبونها بينهم، كُلُّ ثلاثةٍ على بعير. وكان للنبي ﷺ زميلان، فكانوا يعتقبون على بعيرٍ واحدٍ، فكان زميلاه يقولان لَهُ: يا رسولَ الله، اركب حتى نمشيَ عنك، فيقول: ما أنتما بأَقْوَى على المشي منِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما. ولم يكن معهما إلا فرسان، وقيل ثلاثة، وقيل فرسٌ واحد للمقداد.

وبلغ المشركين خروجُ النبي ﷺ لطلب العير، فأخذ أبو سُفيان بالعِير نحو الساحل، وبعث إلى أهل مكَّة يخبرهم الخبر، ويطلبُ منهم أن ينفروا لحمايةِ عِيرهم، فخرجوا مستصرخين، وخرج أشرافُهم ورؤساؤهم، وساروا نحو بدْرٍ. واستشار النبيُّ ﷺ المسلمين في القتال، فتكلَّم المهاجرون فسكت عنهم، وإنما كان قَصْدُه الأنصار؛ لأنَّه ظنَّ أنَّهم لم يبايعوه إلَّا على نُصْرته على من قَصَدَهُ[2] في ديارهم، فقام سَعْد بنُ عُبَادَةَ[3]، فقال: إيَّانا تريدُ، يعني الأنصار، والذي نفسي بيده، لو أَمَرْتَنا أن نُخِيضَها البَحْرَ لأَخَضْناها، ولو أمَرْتَنا أن نضرِبَ أكبادَها إلى بَرْكِ الغِمَادِ لَفَعَلْنا[4]. وقال له المقدادُ: لا نَقُول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذْهَبْ أنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إنَّا

---

[1] رقم (٢٧٤٧) في الجهاد: باب في نقل السرية تخرج من العسكر، وإسناده حسن. [2] في ش: «يقصدُه». [3] هو سعد بن عُبَادة بن دليم بن حارثة، صحابي من أهل المدينة، سيد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام، وأحد النقباء الاثني عشر. مات بحوران مهاجراً سنة ١٤ هـ. [4] أخرجه مسلم رقم (١٧٧٩) في الجهاد: باب غزوة بدر، وأبو داود رقم (٢٦٨١) في الجهاد: باب في الأسير ينال منه ويضرب، وأحمد في «مسنده» ٣/٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٧.

هاهنا قاعدون ﴾[1]، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالِك، وبين يديك، ومِن خلفِكَ. فَسُرَّ النبي ﷺ بذلك وأجمَعَ على القتال[2].

وبات تلك الليلة ليلة الجمعة سابعَ عشَرَ رمضانَ قائماً يُصلّي ويبكي ويدعو الله ويستنصره على أعدائه.

وفي «المسند» عن علي بن أبي طالب، قال: «لَقَدْ رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلَّا رسولُ اللهِ ﷺ تحت شجرةٍ يُصلِّي ويبكي حتَّى أَصْبَحَ».

وفيه[3] عنه أيضاً، قال: أصَابَنَا طَشٌّ مِن مطرٍ، يعني ليلَةَ بدْرٍ، فانطلقنا تحت الشَّجَرِ والحَجَفِ[4] نستظلُّ بها من المطرِ، وبات رسولُ الله ﷺ يدعو رَبَّهُ، ويقول: «إن تُهْلِكْ هذه الفئةَ لا تُعْبَدْ»، فلمَّا أن طَلَعَ الفجرُ نادى: الصَّلاةَ عبادَ اللهِ، فجاء الناس من تحت الشَّجر والحَجَفِ، فصلَّى بنا رسولُ الله ﷺ، وحثَّ على القتال.

وأَمَدَّ اللهُ تعالى نبيَّهُ والمؤمنين بنَصْرٍ مِن عندِه وبجندٍ من جندِه، كما قال تعالى: ﴿ إذْ تَسْتَغِيثون رَبَّكُم فاسْتَجَابَ لكُم أَنِّي مُمِدُّكُم بألفٍ مِنَ الملائكةِ مُرْدِفين. وما جَعَلَهُ اللهُ إلَّا بُشرَى وَلِتَطْمئِنَّ به قُلُوبُكُمْ وما النَّصْرُ إلَّا مِن عِنْدِ اللهِ ﴾[5].

وفي «صحيح البخاري»[6] أنَّ جبريلَ قال للنبيِّ ﷺ: «ما تَعُدُّون أهْلَ بدْرٍ فيكم؟ قال: مِن أفْضَل المسلمين، أو كلمةً نَحْوَهَا. قال: وكذلك مَن شهِدَ بدْراً من الملائكة». وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنتُمْ أذِلَّةٌ ﴾[7]. وقال: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ، وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمَى ﴾[8]. ورُوي أنَّ النبي ﷺ لما رآهم قال: «اللهمَّ، إنَّ هؤلاءِ قُريشٌ قد جاءت بخُيلائها يُكَذِّبون

---

[1] سورة المائدة الآية ٢٤. [2] تاريخ الإسلام (المغازي) ص ٨١. وأخرجه البخاري ٢٢٣/٧، ٢٢٤ في المغازي، مع اختلاف في اللفظ. [3] مسند أحمد ١١٧/١. [4] الحَجَف: ضرب من التَّرَسَة، واحدها حَجَفة، وقيل: هي من الجلود خاصة، وقيل: هي من جلود الإبل مُقَوَّرة. (اللسان). [5] سورة الأنفال الآية ٩ و ١٠. [6] ٢٥١/٧ في المغازي: باب شهود الملائكة بدراً. [7] سورة آل عمران الآية ١٢٣. [8] سورة الأنفال الآية ١٧.

رسولَك، فأنجِزْ لي ما وَعَدْتَني»[1] . فأتاه جبريلُ، فقال: «خُذْ قَبْضَةً مِن تُرابٍ فآرْمِهم بها، فأخَذَ قَبْضَةً من حَصْباءِ الوادي فرمَى بها نحوَهم، وقال: «شَاهَت الوُجُوه» فلم يبقَ مُشْرِكٌ إلَّا دَخَلَ في عَيْنَيْهِ ومَنْخِرِه وفمه شيءٌ، ثم كانت الهزيمة. وقال حكيم بن حزام: سمِعْنا يومَ بدْرٍ صوتاً وقَعَ من السَّماء كأنَّه صوتُ حَصَاةٍ على طَسْتٍ، فرمَى رسولُ الله ﷺ تِلكَ الرَّميَةَ، فانهزمنا. ولما قدِمَ الخبَرُ على أهل مكة قالوا لمن أتاهم بالخبر: كيف حالُ الناسِ؟ قال: لا شيءَ، والله إن كان إلَّا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا، يقتلونا ويأسرونا كيف شاؤوا، وأيْمُ اللهِ، مع ذلك ما لمتُ النَّاسَ؛ لقينا رجالاً[2] على خيلٍ بُلقٍ بين السَّماء والأرضِ ما يقومُ لها شيءٌ[3].

وقتل الله صنادِيدَ كفَّارِ قريشٍ يومئذ؛ منهم عُتبة بن ربيعة، وشيبةُ[4]، والوليدُ بن عتبة، وأبو جهلٍ، وغيرُهم. وأسَرُوا منهم سبعين. وقصَّة بدْرٍ يطولُ استقصاؤها، وهي مشهورة في التفسير وكتب الصحاح والسنن والمسانيد والمغازي والتواريخ وغيرِها. وإنما المقصودُ هاهنا التنبيهُ على بعض مقاصدِها. وكان عدوُّ اللهِ إبليسُ قد جاء إلى المشركين في صورة سُرَاقَةَ بن مالكٍ، وكانت يدُهُ في يدِ الحارث بن هشامٍ، وجعل يُشجعهم ويعِدُهم ويمنِّيهم، فلمَّا رأى الملائكةَ هَرَبَ وألقى نفسَه في البحر. وقد أخبَرَ اللهُ عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعْمَالَهُمْ وقال لا غالبَ لكُمُ اليومَ مِن النَّاس وإنِّي جَارٌ لكُمْ فلمَّا تراءت الفئتانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وقال إنِّي بريءٌ مِنكُم إنِّي أَرَى ما لا تَرَوْنَ إنِّي أخافُ اللهَ واللهُ شديدُ العقاب ﴾[5].

وفي الموطأ[6] حديثٌ مرسَلٌ عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «ما رُؤِي الشَّيطانُ أحقَرَ ولا أَدْحَر[7] ولا أَصْغَرَ من يوم عرفَةَ، إلَّا ما رأى يَوْمَ بدر. قيل: وما رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ؟ قال:

---

[1] رواه بنحوه الإمام أحمد في «مسنده» ١/ ٣٠، ٣٢. وفي تاريخ الإسلام (المغازي) للذهبي ص ١٠٩: «اللهم، هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها تُحَادُّك وتكذِّب رسولك». [2] زاد في البداية والنهاية: «بيضاً». [3] البداية والنهاية ٣/ ٣٠٩. [4] أي: شيبة بن ربيعة. [5] سورة الأنفال الآية ٤٨، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٧ - ٣١٨. [6] أخرجه الموطأ مرسلاً من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز ١/ ٤٢٢ في الحج، باب جامع الحج، قال الزرقاني في «شرح الموطأ»: وصله الحاكم في «المستدرك» عن أبي الدرداء. ولفظه في الموطأ: «ما رؤي الشيطان يوماً هو أصغر ولا أدحر...». [7] الدَّحْر: الطرد والإبعاد.

رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكة». فإبليس عدوُّ اللهِ يَسعَى جهدَه في إطفاءِ نورِ الله وتوحيدِه، ويُغرِي بذلك أولياءَه من الكفَّار والمنافقين. فلمَّا عجز عن ذلك بنصر الله نبيَّه وإظهار دينِه على الدِّين كُلِّه، رضِي بإلقاء الفتن بين المسلمين، واجْتَزَى منهم بمحقَّرَات الذنوب حيثُ عَجَزَ عن ردِّهم عن دينهم؛ كما قال النبي ﷺ «إنَّ الشيطان قد أيس[1] أن يَعبُدَهُ المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم». خرَّجه مسلم[2] من حديث جابر. وخرَّج الإمام أحمد[3] والنسائي والترمذي وابنُ ماجه من حديث عمرو بن الأحوص، قال: سمعْتُ النبي ﷺ يقول في حجة الوَدَاع: «ألا إنَّ الشَّيطانَ قد أَيِسَ[4] أن يُعْبَدَ في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكونُ له طَاعَةٌ في بَعْضِ ما تحتَقِرُون مِن أعمالِكُم، فيرضَى بها».

وفي صحيح الحاكم[5] عن ابن عبَّاسٍ أنَّ النبي ﷺ خَطَبَ في حَجَّةِ الوَدَاع، فقال: «إنَّ الشَّيطان قد يئس[6] أن يُعْبَدَ بأرضكم، ولكنَّه يرضَى أن يُطَاعَ فيما سِوى ذلك؛ فيما تَحَاقَرون من أعمالكم؛ [فيرضَى بها][7] فاحْذَروا، يا أيُّها الناس، إنِّي قد تركْتُ فيكم ما إنْ اعْتَصَمْتُم به فَلَن تَضِلُّوا أبداً: كِتَابَ الله، وسُنَّةَ نبيِّه ﷺ». ولم يعظم على إبليسَ شيء أكبَرُ[8] مِن بعثةِ محمّدٍ ﷺ، وانتشارِ دعوته في مشارق الأرض ومغاربها؛ فإنَّه أيسَ أن تعودَ أمَّتُه كلُّهم إلى الشرك الأكبر.

قال سعيدُ بنُ جُبَير: لمَّا رأى إبليسُ النبيَّ ﷺ قائماً بمكَّةَ يصلِّي رَنَّ. ولمَّا افتتح النبيُّ ﷺ مَكَّةَ رَنَّ رَنَّةً أخرى؛ اجتمعَتْ إليه ذريته، فقال: ايئسوا[9] أن تردُّوا أمَّة

---

[1] في ب، ط: «يئس». [2] رقم (٢٨١٢) في صفات المنافقين: باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس. والترمذي رقم (١٩٣٨) في البر والصلة. والتحريش: الإغراء وإيقاع الفتن بين الناس، وحمل بعضهم على بعض بإيقاع الفساد بينهم. [3] مسند أحمد ـ مختصراً ـ ٤٢٦/٣، والترمذي رقم (٢١٦٠) في الفتن: باب ما جاء دماؤكم وأموالكم عليكم حرام، قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه رقم (٣٠٥٥) في المناسك: باب الخطبة يوم النحر، وأورده الألباني في «صحيح ابن ماجه» ١٨١/٢. كما أخرجه الطبراني في الكبير ٣١/١٧ ـ ٣٢. [4] لغة في يئس. [5] ٩٣/١ على شرط الشيخين. [6] في ب، ط: «أيس». [7] زيادة في (ط)، وليست في المستدرك. [8] في آ، ش، ع: «أكثر». [9] في آ، ط: «أيِسُوا».

محمدٍ [ﷺ][1] إلى الشرك بعدَ يومِكم هذا، ولكن أفتِنُوهم في دينهم، وأفشُوا فيهم النوحَ والشِّعْرَ. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

وخرَّج الطبرانيُّ بإسناده، عن مجاهدٍ، عن أبي هريرة، قال: «إنَّ إبليسَ رَنَّ لمَّا أُنْزِلَتْ فاتحةُ الكتاب، وأُنزِلَتْ بالمدينة. والمعروف هذا عن مجاهدٍ مِن قوله، قال: رَنَّ إبليسُ أربعَ رَنَّاتٍ: حينَ لُعِنَ، وحينَ أُهبِطَ مِن الجنَّة، وحينَ بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ، وحين أُنْزِلَت فاتحةُ الكتاب؛ وأُنْزِلَتْ بالمدينة. خرَّجه[2] وكيعٌ وغيرُه. وقال بعضُ التابعين: لمَّا أُنْزِلَتْ هذه الآيةُ ﴿والَّذين إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أنفُسَهم ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم﴾[3]، الآية، بَكَى إبليس[4]. يشير إلى شدَّة حزنه بنزولِها؛ لِما فيها من الفرح لأهل الذنوب، فهو لا يزال في همٍّ وغمٍّ وحُزنٍ منذُ بُعِثَ النبيُّ ﷺ، لِما رأى منه ومن أمَّتِه ما يُهِمُّه ويُغِيظُه.

قال ثابت: لمَّا بُعِثَ النبيُّ ﷺ، قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمرٌ فانظروا ما هُو. فانطلقُوا، ثم جاؤوه، فقالوا: ما ندري. قال إبليس: أنا آتيكم[5] بالخبر. فذهب وجاء، قال: قد بُعِثَ محمد ﷺ. فجعل يُرسِلُ شياطينَه إلى أصحاب النبي ﷺ، فيجيؤون[6] بصُحفهم ليس فيها شيء. فقال: ما لكم لا تُصيبون منهم شيئاً؟ قالوا: ما صحِبْنا قوماً قَطُّ مثلَ هؤلاءِ؛ نُصيبُ منهم ثم يقومون إلى الصلاة، فيُمْحَى ذلك. قال: رُويداً! إنَّهم عسى أن يفتحَ اللهُ لهم الدنيا، هنالك تُصِيبُون حاجَتَكم منهم.

وعن الحسن، قال: قال إبليسُ: سَوَّلْتُ لأمَّة محمدٍ المعاصي، فقطَعُوا ظهري بالاستغفار، فسَوَّلْتُ لهم ذنوباً لا يستغفرون منها، يعني الأهواء.

ولا يزالُ إبليسُ يَرَى في مواسم المغفِرَة والعِتقِ مِن النار ما يَسُوؤُه؛ فيومُ عرفَةَ لا

---

[1] زيادة من ب، ط. [2] الدر المنثور ١/١٦ ـ ١٧ وفيه: أخرجه وكيع في تفسيره، وابن الأنباري في المصاحف، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم في الحلية، عن مجاهد. [3] سورة آل عمران الآية ١٣٥. [4] أخرجه ابن كثير في تفسيره ١/٤٠٧ من حديث ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه. [5] في ب، ط: «أنبِّئكم». [6] في ب، ش، ع، ط: «فيجيئوا».

يُرَى أصغرَ ولا أحقرَ ولا أدحَر فيه منه؛ لِمَا يَرَى مِن تنزُّلِ الرَّحمةِ وتجاوُزِ اللهِ عن الذُّنوبِ العِظامِ، إلا ما رؤي يومَ بدْرٍ.

وَرُوِيَ أنَّه لمَّا رأى نزولَ المغفِرة للأمَّةِ في حجَّةِ الوداع يومَ النَّحْرِ بالمزدلفَةِ، أهوَى يحثِي على رأسِهِ الترابَ، ويدعو بالويل والثبور. فتبسَّم النبي ﷺ مِمَّا رأى من جزعِ الخبيثِ. وفي شهر رمضانَ يلطفُ الله بأمَّة محمدٍ ﷺ فيغلُّ فيه الشياطينَ وَمَرَدَةَ الجنِّ حتَّى لا يقدِروا على ما كانوا يقدِرون عليه في غيره من تسويل الذنوب. ولهذا تقِلُّ المعاصي في شهر رمضان في الأمَّة لذلك. ففي «الصحيحين»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إذا دَخَلَ رَمَضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ السَّماءِ، وغُلِّقَتْ أبوابُ جَهَنَّم، وسُلْسِلَت الشَّياطينُ». ولمسلمٍ: «فُتِّحَتْ أبوابُ الرَّحمةِ». وله أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إذا جاء رمضان فُتِّحَتْ أبوابُ الجنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أبوابُ النَّار، وصُفِّدَتِ الشياطينُ».

وخرَّج منه البخاري ذِكْرَ فتحِ أبوابِ الجنَّةِ.

وللترمذي[2] وابن ماجه عنه عن النبيِّ ﷺ، قال: «إذا كان أوَّلُ ليلةٍ من شهر رَمَضانَ صُفِّدَتِ الشَّياطينُ ومَرَدَةُ الجنِّ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النَّارِ، فلم يُفْتَحْ منها بابٌ؛ وفُتِّحَتْ أبوابُ الجنَّة، فلم يُغْلَقْ منها بابٌ؛ ويُنادِي منادٍ: يا باغيَ الخير أَقْبِلْ، ويا باغيَ الشرِّ أَقْصِرْ، ولِلّهِ عُتقاءُ مِن النَّارِ، وذلك [في] كُلِّ ليلةٍ». وفي رواية للنسائي[3]: «وتُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ».

وللإمام أحمدَ[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «أُعْطِيَتْ

---

[1] أخرجه البخاري ٤/١١٢ في الصوم: باب هل يقال: رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كلَّه واسعاً، وفي بدء الخلق: باب صفة إبليس وجنوده. ومسلم رقم (١٠٧٩) في الصوم: باب فضل شهر رمضان. [2] رقم (٦٨٢) في الصوم: باب ما جاء في فضل شهر رمضان، وابن ماجه رقم (١٦٤٢) في الصيام: باب ما جاء في فضل شهر رمضان. [3] ٤/١٢٦ ـ ١٢٨ في الصوم: باب فضل شهر رمضان، وباب ذكر الاختلاف على الزهري فيه. [4] مسند أحمد ٢/٢٩٢، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٤٠ وقال: «رواه أحمد والبزار، وفيه هشام بن زياد أبو المقدام، وهو ضعيف».

أمَّتي في رَمَضانَ خمسَ خِصَالٍ، لم تُعْطَه أُمَّةٌ قبلَهم: خُلُوفُ فَمِ الصَّائم أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المِسْكِ، وتستغفِرُ لهم الملائِكةُ حتَّى يُفطِروا، ويُزَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ يومٍ جَنَّتَه، ثم يقولُ: يُوشِكُ عِبادِي الصَّالحون أن يُلْقُوا عنهم المَؤونَةَ والأذَى وَيَصيرُوا إليك، وتُصَفَّدُ فيه مَرَدَةُ الشَّياطينِ، فلا يَخْلُصُون فيه إلى ما كانوا يَخْلُصُون إليه في غيره، وَيُغْفَرُ لهم في آخرِ ليلةٍ. قيل: يا رسولَ الله، أهِي ليلةُ القَدْرِ؟ قال: لا، ولكنَّ العاملَ إنَّما يُوَفَّى أَجْرَه إذا قضَى عَمَلَه».

وفي ليلة القدر تنتشِرُ الملائكةُ في الأرض، فيبطُلُ سُلطانُ الشَّياطِين، كما قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الملائِكةُ والرُّوحُ فيها بإذْنِ رَبِّهم من كُلِّ أمرٍ. سلامٌ هي حتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾[1]. وفي المسند[2] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال: «الملائكةُ تلك الليلة في الأرض أكثَرُ مِن عَدَدِ الحَصَى». وفي صحيح ابن حبَّان[3]، عن جابرٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال في ليلَةِ القَدْرِ: «لا يَخْرُجُ شَيْطَانُها حتَّى يَخْرُجَ فَجْرُها». وفي المسند[4] من حديث عُبَادَةَ بن الصَّامت، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال في ليلة القدر: «لا يَحِلُّ لكَوْكَبٍ أن يُرْمَى به [فيها] حتَّى يُصْبِحَ، وأن أَمَارَتَها أنَّ الشَّمسَ تخرُجُ صَبِيحَتَها مُسْتَوِيةً ليسَ لها شُعَاعٌ مثلَ القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ، لا يحِلُّ للشَّيْطانِ أن يخرُجَ معها يومئذٍ».

ورُوِي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: إنَّ الشيطان يطلُعُ مع الشَّمسِ كُلَّ يومٍ إلَّا ليلةَ القدْرِ؛ وذلك أنَّها تطلُعُ لا شعاعَ لها.

وقال مجاهِدٌ في قوله تعالى: ﴿سلامٌ هي حتَّى مطلع الفجر﴾، قال: سلام أن يحدُثَ فيها داءٌ أو يستطيعَ شيطانُ العمَلَ فيها. وعنه قال: ليلةُ القدْرِ ليلة سالمةٌ لا يحدثُ فيها داءٌ، ولا يُرْسَلُ فيها شيطان. وعنه قال: هي سالمةٌ لا يستطيعُ الشيطانُ أن يعملَ فيها سُوءاً، ولا يُحدِثُ فيها أذىً. وعن الضحَّاك، عن ابن عباس، قال: في تلك

---

[1] سورة القدر الآية ٤ و ٥. [2] مسند أحمد ٢/٥١٩. [3] صحيح ابن حبان ٥/٢٧٧ في الاعتكاف وليلة القدر، وصحيح ابن خزيمة ٣/٣٣١ بلفظ «حتى يضيء فجرها». [4] مسند أحمد ٥/٣٢٤ والزيادة منه.

الليلة تصفَّدُ مَرَدَةُ الجِنِّ، وتُغَلُّ عفاريتُ الجِنِّ، وتُفْتَحُ فيها أبوابُ السَّماءِ كلُّها، ويَقْبَلُ اللهُ فيها التوبَةَ لكُلِّ تائبٍ؛ فلذلك قال: ﴿ سلامٌ هي حتَّى مطلَعِ الفجر ﴾. ويُروى عن أبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه، قال: لا يستطيعُ الشَّيطانُ أن يُصِيبَ فيها أحداً بِخَبَلٍ أو داءٍ أو ضَرْبٍ من ضُرُوبِ الفسادِ، ولا ينفُذُ فيها سِحْرُ ساحِرٍ.

ويُروى بإسنادٍ ضعيفٍ عن أنسٍ مرفوعاً: «أنَّه لا تَسْرِي نجومُها، ولا تنبَحُ كلابُها». وكلُّ هذا يَدُلُّ على كفِّ الشَّياطين فيها عن انتشارِهم في الأرض، ومنعِهم من استِراقِ السَّمع فيها من السَّماء. ابنَ آدمَ! لو عرفْتَ قدْرَ نفسِكَ ما أهنْتَها بالمعاصِي، أنتَ المختارُ من المخلوقات، ولك أُعِدَّتِ الجنَّة؛ إن اتقيتَ فهي أقطاعُ المتقين، والدنيا أقطاعُ إبليسَ؛ فهو فيها من المنظَرينَ. فكيفَ رضِيتَ لنفسِكَ بالإعراض عن أقطاعِكَ ومزاحمةِ إبليسَ على أقطاعِهِ، وأن تكونَ غداً مَعَهُ في النَّار من جملة أتباعِهِ؟ إنَّما طَرَدْنَاهُ عن السَّماء لأجلك حيثُ تكبَّر عن السُّجودِ لأبيكَ، وطلبْنا قربَكَ؛ لتكونَ من[1] خاصتنا وحزبنا، فعادَيْتَنا ووالَيْتَ عَدُوَّنا، ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَه وذُرِّيَّتَهُ أَولياءَ مِن دُوني وَهُم لَكُم عَدُوٌّ بئسَ للظَّالمين بَدَلاً ﴾[2].

رَعَى اللهُ مَن نَهْوَى وإنْ كان ما رَعى ... حَفِظْنا لـه العهـدَ[3] القـديمَ فضَيَّعـا
وصـاحبْتَ قـومـاً كُنْتُ أنهـاكَ عنهُمُ ... وحقِّـكَ مـا أبقيْتَ للصلْحِ مَـوْضِعـا

أبشِروا يا معاشرَ[4] المسلمين، فهذه أبوابُ الجنَّة الثمانيةُ في هذا الشهر لأجلكم قد فُتِحَتْ، ونسماتُها على قلوب المؤمنين قد نَفَحَتْ، وأبوابُ الجحيم كلُّها لأجلكم مُغلَقَةٌ، وأقدامُ إبليسَ وذريَّتِهِ من أجلِكُم موثَقَة. ففي هذا الشهر يؤخَذُ من إبليس بالثأر، وتُستخلصُ العُصاةُ من أسْرِهِ فما يبقَى لهم عندَه آثار. كانوا أفراخَهُ، قد غذَّاهم بالشهوات في أوكارِه، فهجروا اليومَ تلك الأوكار. نقضوا معاقِلَ حصُونِه بمعاوِل التوبة والاستغفار. خرَجُوا من سجنه إلى حصنِ التَّقْوَى والإيمان، فأمِنُوا مِن عذاب النار. قصَمُوا ظهرَهُ بكلمة التوحيدِ؛ فهو يشكُو ألَمَ الانكِسارِ. في كُلِّ مَوْسِمٍ من مواسِمِ

[1] في آ: «من خواصِّنا وجيرتنا». [2] سورة الكهف الآية ٥٠. [3] في آ: «الودَّ». [4] في آ: «يا معشر».

الفَضْلِ يحزَنُ؛ ففي هذا الشَّهْر يدعو بالويل؛ لما يَرَى من تنزُّلِ الرَّحمة ومغفرةِ الأوزار. غلَبَ حزْبُ الرَّحمنِ، وهرب حِزْبُ الشَّيطان؛ فما بقي له سُلطان، إلَّا على الكفَّار. عُزلَ سلطانُ الهَوَى، وصارت الدولةُ لسلطان التَّقوَى؛ ﴿ فاعْتَبِروا يا أُولي الأَبْصَار ﴾[1].

يـا نـدامـايَ صَحَـا القلبُ صَحَـا ... فـاطْـرُدوا عنِّي الـصِّبـا والـمَـرَحـا
هَـزَمَ الـعَـقْـلُ جُـنُـوداً لِـلْهَـوَى ... فـاسِـدِي[2] لا تعجبُـوا إن صَلُحـا
زَجَـرَ الـحـقُّ فـؤادي فـارْعَـوَى ... وأفـاقَ الـقَـلْبُ مـنِّـي وصَـحَـا
بـادِرُوا التَّـوْبَـةَ مِن قَـبْـلِ الـرَّدَى ... فَـمُـنَـادِيـه يُـنَـادِيـنـا الـوَحَـا[3]

هذا ـ عبادَ اللهِ ـ شهرُ رمضانَ قد انتصف، فمن منكم حاسب فيه نفسَه للّهِ وانتصف[4]؟ مَنْ منكم قام في هذا الشهر بحقِّه الذي عَرَفْ؟ من منكم عَزَمَ قبلَ غَلْقِ أبواب الجنَّة أن يبنِيَ له فيها غُرَفاً من فوقها غُرَف؟ ألا إنَّ شهركم قد أخذ في النَّقص، فزيدوا أنتم في العمَل، فكأنكم به وقد انصَرَفَ. فكُلُّ شهرٍ فعسى أن يكونَ منه خلفٌ. وأمَّا شهرُ رمضانَ فمِن أينَ لكم منه خلف؟!

تَنصَّفَ الشَّـهْـرُ والـهـفاهُ وانْهَـدَمـا ... واخْتَصَّ بـالفَوْزِ بـالجنَّاتِ مَن خَـدَمـا
وأصبَـحَ الغـافِـلُ المِسْكينُ منكسِـراً ... مثلي فيـا ويحَهُ يـا عُـظْمَ مـا حُـرِمـا
مَن فـاته الـزَّرْعُ في وقتِ البِذار فما ... تـراه يـحصُـدُ إلَّا الـهَمَّ والـنَّـدمـا
طُـوبَى لمن كـانت التَّقـوَى بضـاعَتَـهُ ... في شهـرِهِ وبـحبـلِ اللهِ مُـعتـصِمـا

* * *

[1] سورة الحشر الآية ٢. [2] في ش، ع: «سادتي»، وصححت في هامش ع: «فاسدي».
[3] الوَحَا: السُّرعة، يُمَدُّ ويقصر. ويقال: الوَحَا الوَحَا، البدارَ البدارَ. [4] في آ، ع: «وانصَف».

المجلس الرابع
في ذكر العشر الأواخر من رمضان

في الصحيحين[1] عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا دخل العشرُ شدَّ مئزرَهُ، وأحيا ليلَهُ، وأيقَظَ أهلَه». هذا لفظ البخاري. ولفظ مسلمٍ: «أحيا الليل، وأيقظ أهلَهُ، وجَدَّ، وشَدَّ المِئْزَرَ». وفي رواية لمسلم عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهدُ في العشر الأواخر ما لا يجتهدُ في غيره». كان النبي ﷺ يخصُّ العشرَ الأواخِرَ من رمضَانَ بأعمالٍ لا يعملُها[2] في بقيَّة الشهر؛ فمنها: إحياءُ الليل؛ فيحتمل أنَّ المرادَ إحياء الليل كلِّه.

وقد روي من حديث عائشة من وجهٍ فيه ضعفٌ بلفظ: «وأحيا الليل كلَّه». وفي «المسند»[3] من وجهٍ آخرَ عنها، قالت: كان النبي ﷺ يخلِطُ العشرين بصلاةٍ ونومٍ، فإذا كان العشرُ ـ يعني[4] الأخير ـ شمَّر وشدَّ المئزَرَ.

وخرَّج الحافظ أبو نُعَيم[5] بإسنادٍ فيه ضعفٌ، عن أنسٍ، قال: «كان النبي ﷺ إذا شهِدَ رمضانَ قام ونام، فإذا كان أربعاً وعشرين لم يَذُقْ غُمْضاً». ويحتمل أن يريدَ بإحياء الليل إحياءَ غالبه. وقد روي عن بعض المتقدِّمين من بني هاشمٍ ـ ظنَّه الراوي أبا جعفرٍ[6] محمد بن علي ـ أنَّه فسَّر ذلك بإحياء نصفِ الليل، وقال: من أحيا نصفَ الليل فقد أحيا الليل. وقد سبق مثلُ هذا في قول عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يصومُ شعبانَ كُلَّه، كان يصومُ شعبان إلَّا قليلاً»[7]. ويؤيِّدُه ما في «صحيح مسلم»[8] عن عائشة، قالت: «ما أعلمُه ﷺ قام ليلةً حتَّى الصباح».

---

[1] أخرجه البخاري رقم (٢٠٢٤) في فضل ليلة القدر: باب العمل في العشر الأواخر من رمضان. ومسلم رقم (١١٧٤) في الاعتكاف: باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان. [2] في ب: «لا يعلمها»، وفي الهامش: «لا يعملها»، وفوقها «معاً». [3] مسند أحمد ٦/١٤٦. [4] قوله: «يعني الأخير» لم يرد في آ، ش، ع، ومسند أحمد. [5] الحلية ٦/٣٠٦. [6] هو أبو جعفر الباقر، محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ثقة، فاضل، وقد سبقت ترجمته. [7] أخرجه مسلم رقم (١١٥٦) في الصيام: باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان. وفي آ، ش، ع: «كان يصومه إلا قليلاً». [8] بعض حديث طويل أخرجه مسلم رقم (٧٤٦) في صلاة المسافرين: باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض.

وذكر بعضُ الشافعية في إحياء ليلتي العيدين أنَّه تحصُلُ فضيلةُ الإحياء بمعظم الليل. قال: وقيل: تحصلُ بساعةٍ. وقد نقل الشافعيُّ في «الأم» عن جماعةٍ من خيار أهلِ المدينة ما يؤيدُه. ونقَلَ بعضُ أصحابهم عن ابن عباسٍ أنَّ إحياءَها يحصُلُ بأن يُصلِّيَ العشاءَ في جماعةٍ، ويعزِمَ على أن يصلِّيَ الصبحَ في جماعةٍ. وقال مالك في «الموطأ»[1]: بلغني أنَّ ابنَ المسيبِ قال: «مَن شَهِدَ العِشاءَ ليلةَ القدْرِ، يعني في جماعةٍ، فقد أخذَ بحظِّه منها». وكذا قال الشافعي في القديم: من شهِدَ العشاءَ والصبحَ ليلةَ القَدْرِ فقد أخَذَ بحظِّه منها.

وقد روي هذا من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من صلَّى العشاءَ الآخِرَة في جماعةٍ في رمضانَ، فقد أدرَكَ ليلةَ القَدْرِ». خرَّجه أبو الشيخ الأصبهاني. ومن طريقه أبو مُوسى المديني. وذكر أنه رُوي من وجهٍ آخر عن أبي هريرة نحوه.

ويروى من حديثِ عليِّ بن أبي طالبٍ مرفوعاً. لكن إسناده ضعيفٌ جدًّا. ويُروى من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلاً: أنَّ النبي ﷺ قال: مَن أتى عليه رمضانُ صحيحاً مسلماً؛ صام نهارَه، وصلَّى وِرداً مِن ليله، وغَضَّ بَصَرَه، وحفِظَ فَرْجَه، ولسانَه، ويدَه، وحافظ على صلاته في الجماعة؛ وبكَّر إلى جمعةٍ[2]؛ فقد صامَ الشهرَ، واستكملَ الأجْرَ، وأدرك ليلَةَ القَدْرِ، وفاز بجائزة الرَّبِّ عزَّ وجلَّ. قال أبو جعفرٍ: جائزةٌ لا تُشبِهُ جوائزَ الأمراءِ. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا. ولو نذرَ قيامَ ليلة القَدْرِ لزمَه أن يقومَ من ليالي شهر رمضانَ ما يُتيقَّنُ به قيامُها. فمن قال من العلماءِ: إنَّها في جميع الشهر، يقول: يلزمُهُ قيامُ جميع ليالي الشهر. ومن قال: هي في النصفِ الآخر من الشهر، قال: يلزمُهُ قيامُ ليالي النصف الأخير منه. ومن قال: هي في العشر الأواخر مِن الشهر، قال: يلزَمُهُ قيامُ ليالي العشر كلِّها، وهو قولُ أصحابنا. وإن كان نذرَهُ كذلك، وقد مَضَى بعضُ ليالي العشر؛ فإنْ قلْنا: إنَّها لا تنتقل في العشر، أجزأهُ

---

[1] الموطأ بلاغاً ١/٣٢١ في الاعتكاف: باب ما جاء في ليلة القدر، قال الزرقاني في «شرح الموطأ»: قال ابن عبد البر: قول ابن المسيّب لا يكون رأياً ولا يؤخذ إلا توقيفاً، ومراسيله أصح المراسيل، وذكر الزرقاني لقول ابن المسيب شواهد بمعناه فانظرها هناك. [2] في آ: «جُمَعه».

في [1] نذره أن يقوم ما بَقي من ليالي العشر، ويقومَ من عامٍ قابلٍ من أوَّلِ العشر إلى وقتِ نَذْرِهِ. وإن قلْنا: إنَّها تنتقِل في العشر لم يخرُجْ مِن نَذْرِه بدون قيام ليالي العشر كلِّها بعد عام نذرِه. ولو نذَرَ قيامَ ليلةٍ غيرِ معيّنةٍ، لزمَهُ قيامُ ليلةٍ تامَّةٍ؛ فإنْ قام نصفَ ليلةٍ ثم نام أجزأَهُ أن يقومَ من ليلةٍ أخرى نصفَها؛ قاله الأوزاعيُّ، نقلَهُ عنه الوليدُ بن مسلمٍ في كتاب «النذور»، وهو شبيهٌ بقول مَن قال من أصحابنا وغيرِهم: إنَّ الكفَّارة يُجزىء فيها أن يَعتق نصفي رقبتين.

ومنها: أنَّ النبي ﷺ كان يوقظُ أهلَه للصَّلاة في ليالي العشْرِ دونَ غيرِه من الليالي. وفي حديث أبي ذرٍّ أنَّ النبي ﷺ لما قامَ بهم ليلةَ ثلاثٍ وعشرين، وخمسٍ وعشرين، وسبْعٍ وعشرين، ذكر أنَّه دعا أهلَه ونساءَه ليلة سبعٍ وعشرين خاصَّةً. وهذا يدلُّ على أنَّه يتأكد إيقاظُهم في آكد الأوتار التي تُرجى فيها ليلةُ القَدْر. وخرَّج الطبراني[2] من حديث علي أنَّ النبي ﷺ كان يوقظُ أهلَهُ في العشر الأواخر من رمضانَ وكُلَّ صغيرٍ وكبيرٍ يطيق الصلاةَ.

قال سفيان الثوري: أحَبُّ إليَّ إذا دَخَلَ العشرُ الأواخرُ أن يتهجَّد بالليل، ويجتهدَ فيه، ويُنهِضَ أهلَه وولدَه إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك. وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمَةَ وعليًّا ليلًا فيقولُ لهما: «ألا تقومان فَتُصَلِّيان»[3].

وكان يوقظُ عائشةَ بالليل إذا قضى تهجُّدَه وأراد أن يُوتِرَ. وورد الترغيبُ في إيقاظ أحد الزوجين صاحِبَه للصَّلاة، ونضحِ الماء في وجهه. وفي الموطأ[4] أن عمر بن

---

[1] في آ، ش، ع: «من». [2] رواه الترمذي حتى قوله: «من رمضان» رقم (٧٩٥) في الصيام، باب ٧٣، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وبنحوه في مسند أبي يعلى ٢٨٢/١. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٧٤/٣ مطولاً، وقال: «رواه الترمذي باختصار، ورواه الطبراني في الأوسط، وأبو يعلى باختصار عنه، وفي إسناد الطبراني عبد الغفار بن القاسم وهو ضعيف، وإسناد أبي يعلى حسن. [3] أخرجه البخاري ١٠/٣ في التهجد: باب تحريض النبي ﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب، وفي تفسير سورة الكهف، وفي التوحيد، ومسلم رقم (٧٧٥) في صلاة المسافرين: باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، والنسائي ٢٠٥/٣ و٢٠٦ في قيام الليل. ورواه أحمد في المسند ٧٧/١، ٩١، ١١٢. وانظر تفسير ابن كثير ٩٠/٣ [4] أخرجه الموطأ ١١٩/١ في صلاة الليل: باب ما جاء في صلاة الليل، وإسناده صحيح. وانظر تفسير ابن كثير ١٧١/٣.

الخطاب كان يُصلِّي من الليل ما شاء الله أن يُصلِّي، حتى إذا كان نِصْفُ الليل أيقَظَ أهلَه للصَّلاة، يقولُ لهم: الصَّلاةَ الصَّلاةَ، ويتلو هذه الآيةَ ﴿وأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عليها﴾[1] الآية.

كانت امرأة حبيب أبي محمدٍ[2] تقولُ له بالليل: قد ذهَبَ الليلُ وبين أيدينا طريقٌ بعيدٌ وزادنا قليلٌ، وقوافلُ الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقينا:

يا نائماً باللَّيل[3] كم ترقُدُ ... قُمْ يا حبيبي قد دَنا المَوْعِدُ
وخُذْ مِن اللَّيل وأوقاتِهِ ... وِرْداً إذا ما هجَعَ الرُّقَّدُ
مَنْ نام حتَّى ينقضِي ليلُه ... لم يبلغِ المنزِلَ أو يجهَدُ
[قُلْ لِذَوي الألبابِ أهلِ التُّقى ... قَنْطَرَةُ العَرْضِ لكُم موعِدُ][4]

ومنها: أن[5] النبيَّ ﷺ كان يَشُدُّ المئزَرَ. واختلفوا في تفسيره؛ فمنهم من قال: هو كنايةٌ عن شِدَّة جدِّهِ واجتهادِه في العبادة، كما يقال: فلان يَشُدُّ وسَطَه ويسعَى في كذا. وهذا فيه نظرٌ؛ فإنَّها قالت: «جَدَّ وشَدَّ المئزَرَ»، فعطفَتْ «شَدَّ المئزرَ» على جدِّه. والصحيح أنَّ المراد اعتزالُه للنساء، وبذلك فسَّره السَّلَف والأئمةُ المتقدِّمون؛ منهم سفيان[6] الثوري. وقد ورد ذلك صريحاً من حديث عائشَةَ وأنسٍ، وورد تفسيرُه بأنَّه لم يأوِ إلى فراشِهِ حتَّى ينسلخَ رمضانُ. وفي حديث أنسٍ: «وطوى فراشه، واعتزَلَ النساء». وقد كان النبي ﷺ غالباً يعتكِفُ العشرَ الأواخِرَ، والمعتكِفُ ممنوعٌ من قربانِ النِّساء بالنَّصِّ والإجماع، وقد قال طائفة من السَّلف في تفسير قوله تعالى: ﴿فالآن باشِرُوهُنَّ وابتغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُم﴾[7]: إنه طلبُ ليلة القدر. والمعنى في ذلك أنَّ الله تعالى لما أباح مباشَرَةَ النِّساء في ليالِي الصيام، إلى أن يتبيَّن الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود، أمَرَ مَعَ ذلك بطلب ليلةِ القَدْرِ؛ لئلَّا يشتغلَ المسلمون في طول ليالي

---

[1] سورة طه الآية ١٣٢. [2] هو حبيب أبو محمد الفارسي، كان مجاب الدعوة، حضر مجلس الحسن البصري فتأثر بموعظته، فخرج عما كان يملك. (صفة الصفوة ٣/٣١٥ - ٣٢١). [3] في ب، ط: «يا نائم الليل». [4] هذا البيت لم يرد في آ، ش، ع. [5] في آ، ش، ع: «أنَّه ﷺ». [6] لفظ «سفيان» لم يرد في آ، ش، ع. [7] سورة البقرة الآية ١٨٧.

الشهر بالاستمتاع المباح، فيفوتهم طلبُ ليلة القَدْرِ، فأمر مَعَ ذلك بطلب ليلة القَدْرِ بالتهجُّد من الليل، خصوصاً في الليالي المرجُوِّ فيها ليلةُ القَدْر، فمن هاهنا كان النبيُّ ﷺ يصيبُ مِن أهله في العشرين من رمضان، ثم يعتزل نساءَه ويتفرَّغ لطلب ليلة القَدْرِ في العشر الأواخر.

ومنها: تأخيرُه للفطور إلى السَّحَر[1]. رُوي عنه من حديث عائشَةَ وأنسٍ أنَّه ﷺ كان في ليالي العشْرِ يجعَلُ عَشَاءَهُ سَحُوراً. ولفظُ حديث عائشَةَ: «كان رسول الله ﷺ إذا كان رمضانُ قام ونام، فإذا دَخَلَ العشْرُ شَدَّ المئزَرَ، واجتنَبَ النساءَ، واغتسَلَ بينَ الأذانين، وجعَلَ العَشَاءَ سَحوراً». أخرَجَه ابنُ أبي عاصمٍ، وإسنادُه مقاربٌ. وحديثُ أنسٍ خرَّجه الطبراني، ولفظه: «كان رسولُ الله ﷺ إذا دخل العشرُ الأواخر من رمضانَ طَوَى فراشَهُ واعتزَلَ النساء، وجَعَلَ عَشَاءه سَحُوراً». وفي إسناده حفصُ بنُ واقدٍ، قال ابن عدِيّ: هذا الحديث مِن أنكر ما رأيتُ له. وروي أيضاً نحوه من حديث جابر، خرَّجه أبو بكر الخطيب، وفي إسناده مَن لا يُعرَفُ حالُهُ.

وفي «الصحيحين»[2] ما يشهَدُ لهذه الروايات، ففيهما عن أبي هريرة، قال: «نَهَى رسولُ الله ﷺ عن الوِصالِ في الصَّوم، فقال له رَجُلٌ من المسلمين: إنَّك تواصِلُ يا رسولَ الله؟ قال: وأيُّكم مثلي؟ إني أبيتُ يُطعِمُني ربِّي ويَسقيني. فلمَّا أَبَوْا أن يَنْتَهُوا عن الوِصال واصَلَ بهم يوماً، ثم يوماً، ثم رأوُا الهِلال. فقال: لو تأخَّرَ لَزِدْتُكم، كالتَّنكيل لهم حين أَبَوْا أن يَنْتهوا». فهذا يدلُّ على أنَّه واصَلَ بالناس في آخر الشهر. وروى عاصم بن كليب، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: ما واصل النبيُّ ﷺ وصالكم قطُّ، غيرَ أنَّه قَدْ أخَّر الفِطْرَ إلى السَّحُور. وإسنادُه لا بأس به.

---

[1] في ب، ط: «السَّحور»، وهو ما يُتَسَحَّرُ به، وأراد وقت السَّحُور. والسَّحَرُ: قبيل الصبح.

[2] أخرجه البخاري رقم (١٩٦٥) في الصوم: باب التنكيل لمن أكثر الوصال، ، وفي المحاربين: باب كم التعزير والأدب، وفي الاعتصام: باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين. ومسلم رقم (١١٠٣) في الصيام: باب النهي عن الوصال. والموطأ ٣٠١/١ في الصيام: باب النهي عن الوصال في الصيام.

وخرَّج الإمام أحمدُ[1] من حديث علي أنَّ النبي ﷺ كان يواصلُ إلى السَّحَر. وخرَّجه الطبرانيُّ[2] من حديث جابرٍ أيضاً. وخرَّج ابن جرير الطبري[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ كان يواصل إلى السَّحَر، ففعل ذلك بعضُ أصحابه، فنهاه، فقال: أنت تفعل ذلك. فقال: إنكم لستُم مثلي، إنِّي أظلُّ عند ربِّي يُطعمني ويسقيني. وزعم ابنُ جرير أنَّ النبي ﷺ لم يكن يواصِلُ في صيامه إلَّا إلى السَّحَر خاصَّةً، وأنَّ ذلك يجوز لمن قوي عليه، ويُكْرَه لغيرِه. وأنكَر أن يكونَ استدامةُ الصِّيام في الليل كلِّه طاعةً عند أحدٍ من العلماءِ؛ قال: وإنما كان يُمسِكُ بعضُهم لمعنىً آخَرَ غيرِ الصِّيام؛ إمَّا ليكونَ أنشَطَ له على العبادة، أو إيثاراً بطعامه على نفسِهِ، أو لخوفٍ مقلقٍ منَعَه طَعامَه، أو نحو ذلك. فمقتضَى كلامِه أنَّ مَن واصَلَ ولم يُفطِر؛ ليكون أنشَطَ له على العبادةِ من غير أن يعتقدَ أنَّ إمساك الليل قُربةٌ، أنه جائز وإن أمسَكَ تعبُّداً[4] بالمواصلة. فإن كان إلى السَّحَر وقوي عليه، لم يُكْرَه، وإلَّا كُرِهَ.

ولذلك قال أحمد وإسحاق: لا يُكْرَه الوِصالُ إلى السَّحَر.

وفي صحيح البخاري[5] عن أبي سعيدٍ الخدري، عن النبي ﷺ، قال: «لا تواصِلوا، فأيُّكم أرادَ أن يواصِلَ فلْيُواصِلْ إلى السَّحَرِ. قالوا: فإنَّك تُواصِلُ يا رسولَ الله؟ قال: إنِّي لسْتُ كهيئتكم، إني أبيتُ لي مُطعِمٌ يُطعمُني وساقٍ يَسقيني». وظاهرُ هذا يدلُّ على أنَّه ﷺ كان يواصل الليلَ كلَّه، وقد يكون ﷺ إنَّما فَعَلَ ذلك لأنَّه رآه أنشطَ له على الاجتهاد في ليالي العشر، ولم يكُنْ ذلك مضعِفاً له عن العَمل؛ فإنَّ الله كان يُطعمُهُ ويَسقيه. واختلف في معنى إطعامه؛ فقيل: إنه كان يؤتَى بطعامٍ من الجَنَّة يأكُلُه؛ وفي هذا نظر؛ فإنَّه لو كان كذلك لم يكن مواصِلاً، وقد

---

[1] مسند أحمد ١/٩١، ١٤١ وإسناده ضعيف لضعف عبد الأعلى بن عامر الثعلبي. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٥٨ وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح». [2] ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٥٨ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وهو حديث حسن». وانظر المطالب العالية ١/٢٧٩. [3] انظر تفسير القرطبي ٢/٣٢٩، وتفسير ابن كثير ١/٢٢٢. [4] في آ: «قصداً». [5] أخرجه البخاري رقم (١٩٦٣) و (١٩٦٧) في الصوم: باب الوصال، وباب الوصال إلى السحر. وأبو داود رقم (٢٣٦١) في الصوم: باب في الوصال.

أقرَّهُم على قولهم لـه: إنَّك تـواصِلُ. لكن روى عبدُ الرَّزَّاق[1] في كتابه عن ابن جريجٍ، أخبرني عمرو بن دينار: أنَّ النبي ﷺ نَهَى عن الوِصال، قالوا: فإنَّك تواصِلُ؟ قال: وما يدريكم! لَعَلَّ رَبِّي يُطعمني ويَسقيني. وهذا مرسل.

وفي رواية لمسلم[2]، من حديث أنسٍ: «إني أظلُّ يُطعمني ربِّي ويسقيني». وإنما يقال: ظَلَّ يفعَلُ كذا، إذا كان نهاراً، ولو كان أَكْلاً حقيقياً لكان منافياً للصِّيام. والصحيح أنَّه إشارةٌ إلى ما كان الله تعالى يفتحَهُ عليه في صِيامه وخلوته بربِّهِ، لمناجاته وذِكْره من موادّ أنسِهِ ونفَحَاتِ قُدْسِهِ، فكان يَرِدُ بذلك على قلبه من المعارف الإلهية والمنح الربَّانية ما يغذِّيه ويُغنِيه عن الطَّعام والشراب. كما قيل:

لهـا أحـاديثُ من ذكـراك يشغِلُهـا ... عن الـطعـام ويُلهيهـا عـن الـزَّادِ
لهـا بـوجهـك نـورٌ تستـضِيءُ بـه ... وَقْتَ المسِيـر وفي أعقـابِهـا حـادِي
إذا شَكَتْ مِن كَـلَالِ السَّيْر أوعَـدَهـا ... روحُ القُـدُومِ فتحيـا عنـد ميعـادِ

الذِّكْرُ قُوتُ قلوبِ العارفين، يغنيهم عن الطعام والشراب، كما قيل:

أنـتَ رِيِّـي إذا ظـمِئْـتُ إلـى المـا ... ءِ وقُـوتـي إذا أردْتُ الـطَّعـامـا

لمَّا جَاعَ المجتهدون شبِعوا مِن طعام المناجاة. فأفٍّ لمن بَاعَ لذَّةَ المناجاة بفضْل لُقمَةٍ.

يـا مَن لِحَشا المحِبِّ بـالشَّـوق حَشَـا ... ذا سِـرُّ سُراك في الـدُّجـا كيفَ فَشَـا
هـذا المـولى إلى الممـاليـك مَشَـا ... لا كـان عيشـاً أوْرَثَ القلبَ غِشَّـا

ويتأكَّدُ تأخيرُ الفطر في الليالي التي تُرْجَى فيها ليلةُ القَدْرِ. قال زِرّ بن[3] حُبَيْش في ليلة سبعٍ وعشرين: مَن استطاع منكم أن يؤخِّر فِطْرَه فلْيَفْعَلْ وليفطِرْ على ضَيَاحٍ[4] لبنٍ.

ورواه بعضُهم عن زِرٍّ، عن أبيّ بن كعبٍ مرفوعاً، ولا يصح. وضِيَاحُ اللبن،

---

[1] مصنف عبد الرزاق ٤/٢٦٨ رقم (٧٧٥٦) في الصيام: باب الوصال. [2] رقم (١١٠٤) (٦٠) في الصوم: باب النهي عن الوصال في الصوم. [3] في ط: «ذر»، وهو تصحيف. [4] وفي الحديث: «آخِرُ شَرْبَةٍ يشربها عمَّار ضَيَاحُ لبنٍ». غريب الحديث لابن الجوزي ٢/٢٢.

وروي «ضَيْح» بالضاد المعجمة والياءِ آخر الحروف، هو اللبن الخاثِر الممزوج بالماء.

ورَوَى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن علي، قال: إن وافق ليلةَ القدْرِ وهو يأكُلُ، أورثه داءً لا يفارِقُهُ حتَّى يموتَ. وخرَّجه من طريقه أبو موسى المديني. وكأنَّهُ يريد: إذا وافق دخولُها أكلَه، والله أعلم.

ومنها: اغتسالُهُ ﷺ بين العشاءَين، وقد تقدَّم من حديث عائشةَ: «واغتسَلَ بين الأذانين». والمراد: أذانُ المغربِ والعشاء.

وروي من حديثِ علي أنَّ النبيَّ ﷺ كان يغتسِلُ بين العشاءَيْن كُلَّ ليلةٍ، يعني من العشْرِ الأواخر. وفي إسناده ضعفٌ. ورُوي عن حذيفَةَ أنَّه قام مع النبي ﷺ ليلةً مِن رمضانَ، فاغتسَلَ النبيُّ ﷺ وسَتَرَهُ حُذَيْفَةُ، وبقيَتْ فضلةٌ فاغتسَلَ بها حُذَيْفَةُ وسَتَرَهُ النبيُّ ﷺ. خرَّجه ابنُ أبي عاصمٍ.

وفي روايةٍ أخرى عن حذيفَةَ، قال: قام النبيُّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ مِن رمضانَ في حُجْرَةٍ مِن جَريد النَّخل، فصَبَّ عليه دَلْواً من ماءٍ. وقال ابنُ جرير: كانوا يستحبون أن يغتسِلوا كُلَّ ليلةٍ من ليالي العشْرِ الأواخر. وكان النَّخعيُّ يغتسِلُ في العَشْرِ كُلَّ ليلةٍ. ومنهم من كان يغتسِلُ ويتطيَّبُ في الليالي التي تكون أرجَى لليلة القدر، فأمر زِرّ بن حُبَيْش بالاغتسال ليلةَ سبعٍ وعشرين من رمضانَ. وروي عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه أنه إذا كان ليلةُ أربعٍ وعشرين[1] اغتسَلَ وتطيَّب ولبس حُلَّةً إزاراً ورداء، فإذا أصبَحَ طواهما فلم يلبَسْهُما إلى مثلها من قابل.

وكان أيوب السَّختياني يغتسِلُ ليلةَ ثلاثٍ وعشرين وأربعٍ وعشرين، ويلبَسُ ثوبين جديدين، ويستجمرُ ويقولُ: ليلة ثلاثٍ وعشرين هي ليلةُ أهلِ المدينة، والتي تليها ليلتُنا، يعني البصريين. وقال حمَّاد بنُ سَلَمة: كان ثابت البُناني[2]، وحميدٌ الطويل[3]

---

[1] في ع: «أربع وعشرين من رمضان». [2] ثابت بن أسلم البناني، أبو محمد البصري، الإمام القدوة، من أئمة العلم والعمل، ثقة، عابد، ولد في خلافة معاوية، ومات نحو سنة ١٢٧ هـ، وله ست وثمانون سنة. [3] حُمَيد بن أبي حُمَيد الطويل، أبو عبيدة البصري، اختلف في اسم أبيه على نحو عشرة أقوال، أشهرها تَيْرويه، ثقة، مدلس، مات نحو سنة ١٤٣ هـ.

يلبَسَان أحسَنَ ثيابهما ويتطيَّبان، ويطيِّبون المسجِدَ بالنَّضوح[1] والدُّخْنَة في الليلة التي يُرْجَى فيها ليلةُ القَدْرِ. وقال ثابتٌ: كان لتميمٍ الداريّ[2] حُلَّةٌ اشتراها بألف درهمٍ، كان يلبَسُها في الليلة التي يُرْجَى فيها ليلةُ القدر.

فتبيَّنَ بهذا أنَّه يُسْتَحَبُّ في الليالي التي تُرجَى فيها ليلةُ القدر التنظُّفُ والتزيُّن، والتطيّب بالغُسْلِ والطِّيب واللباس الحَسَن، كما يُشْرَع ذلك في الجُمَعِ والأعياد. وكذلك يُشْرَعُ أَخْذُ الزِّينة بالثياب في سائر الصَّلوات، كما قال تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[3]. وقال ابنُ عُمَرَ: «اللهُ أحقُّ أن يُتَزَيَّنَ لَهُ». ورُوِي عنه مرفوعاً.

ولا يكملُ التزيُّن الظاهر إلا بتزين الباطِن؛ بالتَّوْبة والإنابة إلى الله تعالى، وتطهيره من أدناسِ الذنوبِ وأوضارها[4]؛ فإنَّ زينة الظاهر مع خَرَاب الباطن لا تغني شيئاً. قال الله تعالى: ﴿ يا بَني آدمَ، قد أنزلْنا عليكم لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ ورِيشاً وَلِباسُ التَّقْوَى ذلك خَيْرٌ ﴾[5]:

إذا المَرْءُ لم يلبَسْ ثياباً من التُّقَى ... تقلَّبَ عُرياناً وإن كان كاسِيا

لا يصلح لمناجاة الملوك في الخلوات إلَّا من زَيَّنَ ظاهِرَهُ وباطِنَه، وطهَّرَهما خصوصاً ملك الملوك الذي يعلم السِّرَّ وأخْفَى، وهو لا ينظُرُ إلى صوركم وإنما ينظُرُ إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه فليزيِّنْ له ظاهره باللباس، وباطنه بلباس التَّقْوَى. أنشد الشِّبْلِيُّ:

قالوا غدا العيدُ ماذا أَنْتَ لابِسُه ... فقلْتُ خلعة ساقٍ حُبّه جُرَعا
فَقْرٌ وصَبْرٌ هما ثوبان تحتَهُما ... قَلْبٌ يَرَى إلْفَهُ الأعيادَ والجُمُعا
أَحْرَى الملابسِ أن تَلْقَى الحبيبَ بِهِ ... يومَ التَّزاورِ في الثَّوْب الذي خَلَعا
الدَّهْرُ لي مأثَمٌ[6] إنْ غِبْتَ يا أملي ... والعيدُ ما كنْتَ لي مَرْأًى ومُسْتَمَعا

---

[1] النَّضوح: نوع من الطيب تفوح رائحته. والدُّخْنَة: ما يُتَبَخَّر به من الطِّيب. [2] هو تميم بن أوس بن خارجة الدَّاريّ، صحابي مشهور، وقد سبقت ترجمته. [3] سورة الأعراف الآية ٣١. [4] الوَضَر: الدَّرن، والوسخ من الدسم أو غيره. [5] سورة الأعراف الآية ٢٦. [6] في ع: «مأتم».

ومنها: الاعتكاف: ففي «الصحيحين»[1] عن عائشة رضي الله عنها، «أنَّ النبي ﷺ كان يعتكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ من رمضَانَ حتَّى توفَّاه الله تعالى». وفي «صحيح البخاري»[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ الله ﷺ يعتكِفُ في كُلِّ رمضان عشرَةَ أيامٍ. فلمَّا كان العامُ الذي قُبِضَ فيه اعتكَفَ عشرين». وإنما كان يعتكِفُ النبي ﷺ في هذه العشر التي يُطلَبُ فيها ليلةُ القَدْرِ، قطعاً لأشغاله[3]، وتفريغاً لباله، وتخلِّياً لمناجاة[4] رَبِّه وذِكْره ودعائه. وكان يحتجر حصيراً[5] يتخلَّى فيها عن الناس، فلا يخالِطُهم، ولا يشتغِلُ بهم؛ ولهذا ذَهَبَ الإمامُ أحمد إلى أن المعتكِفَ لا يُسْتَحَبُّ له مخالطةُ النَّاسِ، حتَّى ولا لتعليم علمٍ، وإقراء قرآنٍ، بل الأفضَلُ له الانفرادُ بنفسه والتخلِّي بمناجاة رَبِّه وذِكْرِه ودعائه. وهذا الاعتِكافُ هو الخَلْوَةُ الشَّرعية، وإنما يكون في المساجد؛ لئلاَّ يترك به الجُمَعَ والجماعاتِ؛ فإنَّ الخلوةَ القاطِعَةَ عن الجُمَع والجماعاتِ منهيٌّ عنها.

سُئل ابنُ عبَّاس عن رجلٍ يَصومُ النَّهارَ ويقومُ الليلَ، ولا يَشْهَدُ الجُمُعَة والجَمَاعَةَ؟ قال: هو في النار.

فالخلوة المَشْرُوعة لهذه الأمة هي الاعتِكافُ في المساجد، خصوصاً في شهر رمضانَ، خصوصاً في العشر الأواخر منه، كما كان النبي ﷺ يفعله. فالمعتكِفُ قد حَبَسَ نَفْسَه على طاعةِ اللهِ وذِكْرِه، وقَطَعَ عن نفسِه كُلَّ شاغلٍ يَشْغَلُه عنه، وعَكَفَ بقلبه وقالبِهِ على رَبِّه وما يُقَرِّبُه منه، فما بقي له هَمٌّ سِوى اللهِ، وما يُرضيهِ عنه. كما كان داود الطَّائيُّ[6] يقول في ليله: هَمُّكَ عَطَّلَ عليَّ الهُمُومَ، وحالف بَيني وبينَ

---

[1] أخرجه البخاري ٤/٢٧١ في الاعتكاف: باب الاعتكاف في العشر الأواخر، و ٤/٢٨٣ باب الاعتكاف في شوال. ومسلم رقم (١١٥٣) في الاعتكاف: باب متى يدخل من أراد الاعتكاف.
[2] ٤/٢٨٤ في الاعتكاف: باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان و ٩/٤٣ في فضائل القرآن: باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ. وأخرجه أبو داود رقم (٢٤٦٦)، وابن ماجه رقم (١٧٦٩). [3] في ب، ش: «لاشتغاله». [4] في آ، ش: «بمناجاة». [5] في آ، ش، ع: «حصيرة»، وهما بمعنى. ويحتجر حصيراً: أي يجعله لنفسه دون غيره. [6] هو داود بن نُصَيْر، أبو سليمان الطائي، الكوفي، ثقة، زاهد، من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل على شأنه، ولزم الصمت. قال له رجل: أوصني، قال: اتَّقِ الله، وبرَّ والديك، ويحك! وصم الدنيا، واجعل فطرك الموت، واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم. مات سنة ١٦٠ وقيل: ١٦٥ هـ. وقد سبقت ترجمته باختصار.

السُّهادِ، وشوقي إلى النَّظر إليك أوبق[1] مِنِّي اللَّذاتِ، وحَالَ بيني وبينَ الشَّهواتِ.

مـا لي شُغُلٌ سِـواهُ مـا لي شُغُـلُ ... مـا يَصْـرِفُ عن قلبي هـواه عَـذْلُ[2]
مـا أصنَـعُ إنْ جَفَـا وخَـابَ الأمَـلُ ... منِّي بـدَلٌ ومـنـه مـا لـي بَـدَلُ

فمعنى الاعتكاف وحقيقتُهُ: قطعُ العلائِقِ عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالِق، وكلَّما قويتِ المعرفةُ بالله والمحبَّةُ له، والأنسُ به، أورثَتْ صاحبَها الانقطاعَ إلى الله تعالى بالكليّة على كُلِّ حالٍ. كان بعضُهم لا يزالُ منفرداً في بيته، خالياً بربِّه، فقيل له: أمَا تستوحِشُ؟ قال: كيفَ أستوحِشُ وهو يقولُ: «أنا جليسُ مَن ذكرني».

أوحَـشَـتْـنِـي خَـلَواتـي بـكَ مِـن كُـلِّ أنـيـسـي
وتـفـرَّدْتُ فَـعَـايَـنْـتُـكَ بـالـغَـيْـبِ جَـلـيـسِـي

يا ليلةَ القَدْرِ للعابدين آشْهَدِي، يا أقدَامَ القانِتين آرْكَعِي لربِّكِ وآسْجُدِي، يا ألسِنَةَ السَّائلين جُدِّي في المسألة واجْتَهِدِي.

يـا رجـالَ الـلَّيـلِ جُـدُّوا رُبَّ دَاعٍ لا يُـرَدُّ
مـا يـقـومُ الـلَّـيـلَ إلَّا مَـنْ لَـهُ عَـزْمٌ وجِـدُّ

ليلةُ القَدْر عندَ المحبِّين ليلةُ الحُظْوةِ بأُنْسِ مولاهم وقُرْبِه، وإنما يفرُّون من ليالي البُعْد والهجر. كان ببغداد موضعان يقال لأحدهما دارُ المُلْك، والأخرى[3] القطيعة، فجاز بعضُ العارفين بملَّاحٍ في سفينةٍ، فقال له: احمِلْني معكَ إلى دار المُلْك، فقال له الملاح: ما أقصِدُ إلَّا القطيعةَ، فصاح العارِفُ: لا بالله، لا بالله، منها أفِرُّ.

ولـيـلةٍ بـتُّ بـأكـنـافِـهـا تـعـدِلُ عـنـدي لـيـلةَ الـقَـدْرِ
كـانَـتْ سـلامـاً لـسـروري بـهـا بـالـوَصْـلِ[4] حتَّى مطلَعِ الفَجْـرِ

---

[1] في آ: «أحرق»، وفي ط: «أوثق». وأوبق: ذلَّل وأهلك. [2] في آ: «ما يصرف عن هواه قلبي عذل». [3] في ش، ع: «وللأخرى». وبعدها في هامش آ: «دار». [4] في ش: «بالقرب».

يا مَنْ ضَاعَ عُمُرُه في لا شيء، آسْتَدرِكْ ما فاتَكَ في ليلة القَدْرِ؛ فإنَّها تحسَبُ بالعُمرِ.

ولـيلة وَصْـلٍ بـاتَ مُـنْجِـزُ وَعْـدِهِ سَمِيـري فيهـا بعـدَ طَـولِ مـطالِ
شفيتُ بهـا قلبـاً أُطِيـلَ عـليلُه[1] زمـانـاً فـكـانـت لـيـلةً بـلـيـالـي

قال الله تعالى: ﴿ إنَّا أنزلناهُ في لَيْلَةِ القَدْر. وما أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ القَدْر. لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِن أَلْفِ شَهْر ﴾[2]. [واختُلِفَ في ليلة القدر والحكمة في نزول الملائكة في هذه الليلة، أن الملوك والسادات لا يحبون أن يدخل دارهم أحد حتى يزينون دارهم بالفرش والبسط ويزينوا عبيدهم بالثياب والأسلحة، فإذا كان ليلة القدر أمر الربّ تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض؛ لأنَّ العِبادَ زيَّنوا أنفسَهم بالطاعات؛ بالصَّوم والصَّلاة في ليالي رمضان، ومساجدَهم بالقناديلِ والمصَّابيحِ، فيقول الربُّ تعالى: أنتم طعنتم في بني آدم وقلتم ﴿ أَتَجْعَلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيها ﴾[3]، الآية، فقلْتُ لكم: ﴿ إنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾، اذهبوا إليهم في هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أنِّي اخترتهم على علم على العالمين][4].

قال مالك: بلغني أنَّ رسولَ الله ﷺ أُرِي أَعْمَارَ النَّاس قبلَه، أو ما شاء اللهُ من ذلك، فكأنَّه تقاصَرَ أعْمَارَ أُمَّتِه ألَّا يبلُغُوا مِن العَمَل الذي بلَغَ غيرُهُم في طُول العُمُر، فأعطاهُ اللهُ ليلَةَ القَدْرِ خيراً[5] مِن ألفِ شَهْرٍ[6]. ورُوي عن مجاهدٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَرَ رجلاً مِن بني إسرائيلَ لبِسَ السِّلاحَ ألفَ شهرٍ، فعجِبَ المسلمون من ذلك؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى هذه السورة «ليلةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِن أَلْف شَهْرٍ» الذي لبس فيها ذلك الرجل[7] السِّلاحَ في سبيل الله ألفَ شهرٍ. وقال النَّخعِيُّ: العملُ فيها خيرٌ مِن العَمَلِ في ألف شهر.

---

[1] في ب، ط: «غليلُه». [2] سورة القدر الآيات ١ ـ ٣. [3] سورة البقرة الآية ٣٠. [4] ما بين قوسين زيادة في المطبوع لم ترد في باقي النسخ، ولعلها من زيادات ناسخ المصرية. [5] في آ، ش: «خيرٌ». [6] الموطأ ١/٣٢١ في الاعتكاف: باب ما جاء في ليلة القدر. قال ابن عبد البر: هذا أحد الأحاديث الأربعة التي لا توجد في غير الموطأ، لا مسنداً ولا مرسلاً، وليس منها حديث منكر، ولا ما يدفعه أصل. [7] في هامش المطبوع: «قيل: إنه يوشع بن نون، ذكره صاحب روضة العلماء».

وفي «الصحيحين»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «مَنْ قامَ ليلَةَ القَدْرِ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه». وفي «المسند»[2] عن عُبَادَةَ بنِ الصَّامت، عن النبي ﷺ، قال: «من قامَها ابتغاءَها، ثم وقعَتْ له،غُفِرَ له ما تقدَّم مِن ذَنْبِه وما تأخر». وفي «المسند»[3] و«النسائي» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال في شهر رمضانَ: «فيه ليلَةٌ خَيْرٌ مِن أَلْفِ شهرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَها فقد حُرِمَ». قال جُوَيْبر[4]: قلْتُ للضحَّاك: أرأيتَ النفسَاءَ والحائضَ والمسافرَ والنَّائمَ لهم في ليلةِ القَدْرِ نصيبٌ؟ قال: نعم، كُلُّ مَن تقبَّلَ اللهُ عَمَلَه سيعطيه نصيبَه مِن ليلة القَدْر.

إخواني! المعوَّلُ على القَبُولِ لا على الاجتهاد، والاعتبارُ ببرِّ القلوبِ لا بعمَلِ الأبدانِ. رُبَّ قائمٍ حظُّه مِن قيامه السَّهَرُ؛ كم من قائمٍ محرومٍ، ومن نائمٍ مرحوم؛ هذا نام وقلبُه ذاكِرٌ، وهذا قامَ وقلبُه فاجر.

إنَّ المَقاديرَ إذا ساعَدَتْ أَلْحَقَتِ النَّائمَ بالقائمِ

لكنَّ العَبْدَ مأمورٌ بالسَّعي في اكتِسابِ الخيرات والاجتهاد في الأعمال الصالحات؛ وكُلٌّ مَيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له. أمَّا أهلُ السعادة فييسَّرُون لعمَلِ أهلِ السعادة، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ فييسَّرون لعمَلِ أهلِ الشقاوة. ﴿فأمَّا مَن أَعْطَى واتَّقَى. وصَدَّقَ بالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى. وأمَّا مَن بَخِلَ واسْتَغْنَى. وكَذَّبَ بالحُسْنَى فسنيسِّرَه لِلْعُسْرَى﴾[5]. فالمبادرةَ المبادرةَ إلى اغتنام العَمَلِ فيما بقي من الشهر، فعسَى أن يُستدركَ به ما فات من ضياع العُمُر.

تولَّى العُمْرُ في سَهْوٍ وفي لَهْوٍ وفي خُسْرِ

---

[1] أخرجه البخاري ٤/٢٥٠ في صلاة التراويح: باب فضل من قام رمضان، وباب فضل ليلة القدر وغيره. ومسلم رقم (٧٥٩) في صلاة المسافرين: باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح. [2] مسند أحمد ٥/٣١٨. [3] مسند أحمد ٢/٢٣٠، والنسائي ٤/١٢٩ في فضل شهر رمضان: باب ذكر الاختلاف على معمر فيه، بإسناد صحيح. وذكره الألباني في «صحيح سنن النسائي» ٢/٤٥٥ - ٤٥٦. [4] هو جُوَيبر بن سعيد الأزدي، أبو القاسم البلخي، نزيل الكوفة، ضعيف جداً، روى عن أنس ابن مالك، وجوَّاب التيمي، والضحاك بن مزاحم، وجل روايته عنه. [5] سورة الليل الآيات ٥ - ١٠.

فيا ضيعةَ ما أنفقْتُ في الأيَّامِ[1] من عُمْرِي
وما لي في الَّذي ضَيَّعْتُ من عُمْرِي مِن عُذْرِ
فما أغفَلَنا عن وا جباتِ الحَمْدِ والشكرِ
أَمَا قَدْ خَصَّنا اللهُ بِشَهْرٍ أيَّما شَهْرِ
بشهرٍ أَنْزَلَ الرَّحما نُ فيهِ أَشْرَفَ الذِّكْرِ
وهل يشبهُهُ شَهْرٌ وفيهِ لَيْلَةُ القَدْرِ
فكم من خبرٍ صَحَّ بما فيها مِن الخيرِ[2]
رَوَيْنا عَنْ ثِقاتٍ أنَّها تُطْلَبُ في الوِتْرِ
فطُوبَى لامرىءٍ يطلبُها في هذه العَشْرِ
ففيها تَنزِلُ الأملا كُ بالأنوارِ والبِرِّ
وقد قال: سَلامٌ هِيَ حتَّى مطلعَ الفَجْرِ
أَلَا فادَّخِرُوها إنَّها مِن أَنْفَسِ الذُّخْرِ
فكَم مِن مُعْتَقٍ فيها مِنَ النَّارِ ولا يَدْرِي

* * *

المجلس الخامس
في ذكر السَّبع الأواخر من رمضان

في «الصحيحين»[3] عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلةَ القَدْرِ في المنام في السَّبْعِ الأواخر، فقال رسولُ الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تَوَاطأَتْ في السَّبع الأواخر، فمن كان مُتَحَرِّيها فَلْيَتَحَرَّها في السَّبع الأواخر». وفي صحيح مسلم[4] عنه، عن النبي ﷺ قال: «التمِسُوها في العشر

---

[1] في آ: «الأثام». [2] في آ، ش: «الجبر»، وفي ع: «الأجر». [3] أخرجه البخاري رقم (٢٠١٥) في صلاة التراويح: باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، وفي التعبير: باب التواطؤ على الرؤيا. ومسلم رقم (١١٦٥) في الصيام: باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها. [4] رقم (١١٦٥) في الصيام.

الأواخر، فإنْ ضَعُفَ أحدُكم أو عَجَزَ فلا يُغْلَبَنَّ على السَّبْع البَواقِي». قد ذكرنا فيما تقدَّم أنَّ النبي ﷺ كان يجتهد في شهر رمضانَ على طلب ليلة القَدْر، وأنَّه اعتكفَ مرَّةً العشْرَ الأوَّل[1] منه، ثم طلبها فاعتكفَ بعدَ ذلك العشْرَ الأوسَط في طلبها، وأنَّ ذلك تكرَّر منه غير مَرَّة، ثم استقَرَّ أمرُهُ على اعتِكاف العَشْر الأواخر في طلبها، وأَمَرَ بطلبها فيه. ففي «الصحيحين»[2] عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال: «تحرَّوا ليلَةَ القَدْر في العَشْر الأواخِر مِن رَمضانَ».

وفي رواية للبخاري: «في الوِتْر مِن العَشْر الأواخِرِ مِن رمضان».

وله[3] من حديثِ ابن عباسٍ، عن النبي ﷺ، قال: «التمِسُوها في العشر الأواخرِ[4] مِن رمضان». ولمسلم[5] من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «التمسوها في العَشْر الغَوابِر». والأحاديثُ في المعنى كثيرة. وكان يأمُر بالتماسها في أوتار العَشْر الأواخر. ففي «صحيح البخاري»[6] عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «التمِسوها[7] في العَشْر الأواخر من رمضان؛ في تاسعةٍ تَبْقَى، في سابعةٍ تَبْقَى، في خامسةٍ تَبْقَى».

وفي رواية له: «هي في العَشْر؛ في سبْعٍ يَمضينَ، أو سبْعٍ يَبْقَيْنَ».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[8] والنَّسائي والترمذيّ من حديث أبي بَكْرَةَ، قال: ما أنا بملتمِسِها لشيءٍ سمِعْتُه مِن رسول الله ﷺ إلَّا في العَشْرِ الأواخر؛ فإنِّي سمِعْتُه يقولُ: «التمِسُوها في تِسْعٍ يَبْقَيْن، أو سَبْعٍ يَبقَيْن، أو خَمْسٍ يَبْقَيْن، أو ثلاثٍ يبقَيْن، أو آخرِ ليلةٍ». وكان أبو بَكْرَة يصلِّي في العشرين مِن رمضانَ كصلاتِه في سائر السَّنَة، فإذا

---

[1] في ط: «الأوائل». [2] البخاري رقم (٢٠١٧) في صلاة التراويح: باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر. ومسلم رقم (١١٦٩) في الصيام: باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها. [3] البخاري رقم (٢٠٢١) في صلاة التراويح: باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر. [4] في ب، ط: «الأواخر الغوابر». [5] قطعةمن حديث أخرجه مسلم رقم (١١٦٦) في الصيام: باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها. والغوابر: البواقي. [6] البخاري رقم (٢٠٢١). [7] في ب، ط: «التمسوا ليلة القدر...». [8] رواه الإمام أحمد في «المسند» ٣٦/٥، ٣٩ والترمذي، رقم (٧٩٤) في الصوم: باب ما جاء في ليلة القدر، وإسناده حسن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

دَخَلَ العشْرُ اجتهدَ، ثم بعدَ ذلك أَمَرَ بطلبها في السَّبْع الأواخر.

وفي المسند[1] وكتاب النسائي عن أبي ذرٍّ، قال: كنتُ أسألُ الناس عنها، يعني ليلَةَ القَدْر، فقلت: يا رسولَ الله، أخبِرني عن ليلة القَدْرِ، أفي رمضان هي، أو في غيره؟ قال: بَل[2] هي في رمضانَ. قلت: تكونُ مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قُبِضُوا رُفِعَتْ، أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: بل هي إلى يوم القيامة. قلتُ: في أيِّ رمضان هي؟ قال: التَمِسُوها في العشْرِ الأوَّل والعَشْرِ الأواخر. قلْتُ: في أي العشرين هي؟ قال: في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيءٍ بعدها. ثم حدَّث رسول الله ﷺ، ثم اهْتَبَلْتُ[3] غَفْلَتَه، فقلْتُ: يا رسولَ الله، أقسمْتُ عليك بحقِّي لَمَا أخبرتني، في أيِّ العَشْرِ هي؟ فغضِبَ عليَّ غضَباً لم يغضَبْ مثلَه منذُ صَحِبْتُه، وقال: التمِسُوها في السَّبْع الأواخر؛ لا تسألني عن شيءٍ بعدَها. وخرَّجه ابنُ حِبَّان[4] في «صحيحه» والحاكم. وفي رواية لهما: أنَّه قال: «ألم أنْهَكَ أن تسألني عنها؟ إن الله لو أذِنَ لي أن أخبِرَكم بها لأخبرتكم، لا آمَنُ أن تكونَ في السَّبْع الأواخر». ففي هذه الرواية أنَّ بيان النبي ﷺ لليلة القدر انتهى إلى أنَّها في السَّبْع الأواخر، ولم يزِدْ على ذلك شيئاً. وهذا ممَّا يَسْتَدِلُّ به من رَجَّح ليلةَ ثلاثٍ وعشرين وخمسٍ وعشرين على ليلةِ إحدى وعشرين، فإنَّ ليلة إحدى وعشرين ليسَتْ من السَّبْع الأواخر بلا تردُّدٍ. وقد رُوي عن النبي ﷺ من وجوهٍ أُخَرَ أنَّه بيَّن أنَّها ليلَةُ سَبْع وعشرين، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

واختُلِفَ في أوَّل السَّبْع الأواخِر؛ فمنهم مَن قال: أوَّلُ السَّبْعِ ليلةُ ثلاثٍ وعشرين، على حساب نُقصانِ الشَّهرِ دون تمامِهِ؛ لأنَّه المتيقَّنُ. ورُوي هذا عن ابن عباسٍ، وسيأتي كلامه فيما بعدُ إن شاء الله تعالى. وفي «صحيح البخاري»[5] عن بلالٍ رضي الله عنه، قال: إنَّها أوَّلُ السَّبْع من العشر الأواخر.

---

[1] مسند أحمد ١٧١/٥. [2] في ب، ط: «بلى». [3] أي تحينتها واغتنمتها. [4] أخرجه ابن حبان في «صحيحه» ٢٧٤/٥ والحاكم في «المستدرك» ٤٣٧/١ على شرط مسلم ولم يخرجاه. [5] أخرجه البخاري ١٥٣/٨ رقم (٤٤٧٠) في المغازي: باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد في مرضه الذي توفي فيه.

وخرَّجه ابنُ أبي شيبة[1]، وعنده قال: ليلة ثلاثٍ وعشرين، وهذا قولُ مالكٍ[2]، قال: أَرَى ـ والله أعلم ـ أنَّ التاسِعةَ ليلةُ إحدى وعشرين، والسابعةَ ليلةُ ثلاثٍ وعشرين، والخامسةَ ليلَةُ خمسٍ وعشرين. وتأوَّله عبدُ الملك بنُ حَبيبٍ على أنَّه إنما يُحسَبُ كذلك إذا كان الشهر ناقصاً، وليس هذا بشيء؛ فإنَّه إنَّما أمر بالاجتهاد في هذه الليالي على هذا الحساب، وهذا لا يمكن أن يكونَ مراعىً بنقصان الشهرِ في آخره.

وكان أيُّوب السَّختياني يغتسِلُ [كُلَّ][3] ليلَةِ ثلاثٍ وعشرين، ويَمَسُّ طِيباً، وليلَةَ أربعٍ وعشرين، ويقولُ: ليلَةُ ثلاثٍ وعشرين ليلَةُ أهلِ المدينة، وليلَةُ أربعٍ وعشرين ليلتنا. يعني أهلَ البصرة.

وكذلك كان ثابتٌ وحُمَيْدٌ يفعلان. وكانت طائفة تجتهدُ ليلَةَ أربعٍ وعشرين، رُوي عن أنسٍ والحسن، وروي عنه، قال: رَقَبْتُ الشَّمسَ عشرين سنة، ليلَة أربع وعشرين، فكانت تطلعُ لا شُعاعَ لها. ورُوي عن ابن عباس ذكره[4] البخاري عنه. وقيل: إن المحفوظ عنه أنَّها ليلةُ ثلاثٍ وعشرين، كما سبق. وقد تقدَّم حديثُ «إنزال القرآن في ليلةِ أربعٍ وعشرين». وكذلك أبو سعيد الخدريُّ، وأبو ذَرٍّ، حسبا الشهرَ تامّاً، فيكون عندهما أوَّلُ السَّبْع الأواخر ليلَةَ أربعٍ وعشرين. وممَّن اختار هذا القولَ ابنُ عبد البرّ، واستدَلَّ بأنَّ الأصل تمامُ الشهر، ولهذا أمَرَ النبي ﷺ بإكماله إذا غُمَّ، مع احتمال نُقصانِه[5]. وكذلك رجَّحَه بعضُ أصحابنا. وقد تقدَّم من حديث أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان إذا كان ليلة أربع وعشرين لم يذُقْ غَمْضاً، وإسنادُهُ ضعيفٌ. وقد رُوي عن النبي ﷺ ما يدُلُّ على أنَّ أوَّلَ السَّبْع البواقي ليلَةُ ثلاثٍ وعشرين. ففي مسند الإمام أحمد[6]، عن جابر: أنَّ عبد الله بن أُنَيْسٍ سألَ رسولَ الله ﷺ عن ليلة القَدْر، وقد خَلَتْ اثنتان وعشرون ليلةً، فقال رسولُ الله ﷺ: التمِسُوها في هذه السَّبْع الأواخر التي بقين من الشهر.

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة ٣/٧٥ في الصيام: باب ما قالوا في ليلة القدر واختلافهم فيها. [2] من هنا وحتى قوله: «ومسلم من حديث أبي سعيد ص ٣٥٦ س ١٦» تأخر في ش. [3] زيادة من ب، ع. [4] قوله: «ذكره البخاري عنه، وقيل: إنَّ» لم يرد في (آ). [5] في آ، ع: «نقصه». [6] ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣ / ١٧٥ وقال: «رواه أحمد وهو في الأصل كما ترى، وإسناده حسن».

وفيه[1] أيضاً عن عبد الله بن أُنَيْسٍ أنَّهم سألوا النبي ﷺ عن ليلة القَدْرِ، وذلك مساء ليلَةِ ثلاثٍ وعشرين، فقال: التمِسُوها هذه الليلة. فقال رجلٌ مِن القوم: فهي إذن يا رسولَ الله أُولى ثمانٍ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: إنَّها ليسَتْ بأُولَى ثمانٍ، ولكنها أُولَى سبعٍ؛ إنَّ الشَّهْرَ لا يتِمُّ. وفيه[2] أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ، قال: «كم مَضَى من الشهر؟ قلْنا: مَضَتْ ثنتان وعشرون، وبقي ثمانٍ. فقال رسولُ الله ﷺ: لا، بل مضَتْ ثنتان وعشرون، وبقي سَبْعٌ، اطلبُوها الليلَةَ. وقد يُحمَلُ هذا على شهرٍ خاصٍّ اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ على نقصانِهِ، وهو بعيدٌ. ويدُلُّ على خلافِهِ أنَّه رُوي في تمام حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ثم قال رسول الله ﷺ: «الشهرُ هكذا وهكذا وهكذا، ثم خنَسَ إبهامَه في الثالثة». فهذا يدُلُّ على أنَّه تشريعٌ عامٌّ، وأنَّه حسبَ الشَّهْرَ على تقدير نُقصانِه أبداً؛ لأنَّه المتيقَّنُ. كما ذهَبَ إليه أيُّوب ومالك وغيرُهما، وعلى قولهما تكون ليلة سابعةٍ تبقى ليلةَ ثلاثٍ وعشرين، وليلةُ خامسةٍ تبقى ليلةَ خمسٍ وعشرين، وليلةُ تاسعةٍ تبقى ليلةَ إحدى وعشرين.

وقد رُوِي عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه أنَّه أنكر أن تُحسَبَ ليلةُ القدر بما مَضَى من الشهر، وأخبَرَ أنَّ الصَّحابة يحسِبُونها بما بقي منه، وهذا الاحتمالُ إنَّما يكون في مثل قولِ النبي ﷺ: «التمِسُوها في التاسعةِ، والسابعةِ، والخامسة». وقد خرَّجه «البخاري»[3] من حديث عُبَادَةَ رضي الله عنه، ومسلم[4] من حديث أبي سعيدٍ؛ فإنَّه يحتمل أن يُرادَ به التاسعة والسابعة والخامسة، مما[5] يبقى ومما يَمضِي. فأمَّا حديثُ ابن عبَّاسٍ وأبي بَكْرَةَ وما في معناهما؛ فإنَّها مقيَّدَةٌ بالباقي من الشهر، فلا يحتمل أن

---

[1] مسند أحمد ٣/٤٩٥. [2] مسند أحمد ٢/٢٥١ وإسناده صحيح. وأخرجه ابن ماجه رقم (١٦٥٦) في الصيام: باب ما جاء في «الشهرُ تسع وعشرون». وفي زوائد البوصيري: إسناده صحيح على شرط مسلم. وذكره الألباني في «صحيح ابن ماجه» ١/٢٧٧. [3] ٤/٢٦٧ و٢٦٨ رقم (٢٠٢٣) في صلاة التراويح: باب رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس، وفي الإيمان: باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وفي الأدب: باب ما ينهى من السباب واللعن. [4] رقم (١١٦٧) في الصيام: باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها. [5] في ب، ط: «بما يبقى وبما يمضي»، وفي ش: «فيما...».

يُراد به الماضي، وحينئذٍ يتوجَّه الاختلافُ السَّابقُ في أنَّه: هل يُحسب على تقدير تمام الشهر أو نقصانه؟ وحديثُ ابنِ عبَّاسٍ قد رُوِي بالشكِّ فيما مَضَى أو يبقَى. وقد خرَّجه البخاري بالوجهين.

وحديث أبي ذرٍّ في قيام النبي ﷺ بهم أفرادَ العشر الأواخر قد خرَّجه أبو داود الطيالسي بلفظٍ صريحٍ أنَّه قام بهم أشْفَاعَ العشر الأواخِرِ، وحسَبَها أوتاراً بالنسبة إلى ما يبقى من الشهر، وقدَّره تامّاً، وجعَلَ الليلةَ التي قامها حتى خشوا أن يفوتَهُم الفلاحُ ليلَةَ ثمانٍ وعشرين، وهي الثالثة مما يبقَى. وقد قيل: إن ذلك من تصرُّف بعضِ الرُّواةِ بما فهمه من المعنى، والله أعلم. وعلى قياس من حَسَبَ الليالي الباقية من الشهر، على تقدير نقصان الشهر ينبغي أن يكون عندَه أوَّلُ العشر الأواخِرِ ليلَةَ العشرين؛ لاحتمال أن يكون الشهرُ ناقصاً، فلا يتحقَّقُ كونُها عَشْرَ ليالٍ، بدون إدخال ليلةِ العشرين فيها.

وقد يُقال: بل العَشْرُ الأواخر عبارةٌ عمَّا بعدَ انقضاءِ العشرين الماضية من الشَّهر، وسواءٌ كانت تامَّةً أو ناقِصَةً، فهي المعبَّر عنها بالعشر الأواخر، وقيامها هو قيام العشر الأواخر. وهـذا كما يقـال: صامَ[1] عشر ذي الحجة، وإنما يصام منه تسعة أيامٍ؛ ولهذا كان ابنُ سيرين يكرَه أن يقالَ: صام عشر ذي الحجة، وقال: إنَّما يقال: صام التسع. ومن لم يكرهْهُ، وهم الجمهور، فقد يقولون: الصِّيامُ المضافُ إلى العشر هو صيامُ ما يمكن منه، وهو ما عدا يوم النحر. ويطلق على ذلك: العشر، لأنَّه أكثرُ العَشْرِ، والله أعلم.

وقد اختلف الناس في ليلة القَدْر اختلافاً كثيراً، فحُكِي عن بعضهم أنَّها رُفِعَتْ؛ وحديثُ أبي ذَرٍّ يَرُدُّ ذلك. ورُوي عن محمد بن الحنفيَّة أنَّها في كُلِّ سَبْع سنين مرَّةً، وفي إسناده ضعفٌ. وعن بعضهم أنَّها في كُلِّ السَّنة، حُكِي عن ابن مسعودٍ وطائفةٍ من الكوفيين، ورُوي عن أبي حنيفة. وقال الجمهور: هي في رمضان كُلَّ سنة، ثم منهم من قال: هي في الشَّهْر كُلِّه. وحُكِي عن بعض المتقدِّمين أنَّها أوَّلُ ليلةٍ منه. وقالت

---

[1] في آ: «صيام».

طائفة: هي في النصف الثاني منه. وقد حكي عن أبي يوسُف ومحمَّد ـ وقد تقدَّم ـ قولُ مَن قال: إنَّها ليلةُ بدْرٍ، على اختلافهم؛ هل هي ليلةُ سبعَ عشرَةَ، أو تسْعَ عشرَةَ. وقال الجمهور: هي منحصرة في العشر الأواخر، واختلفوا في أي ليالي العشر أرجَى[1]؛ فحُكِي عن الحسن ومالك أنَّها تُطلَبُ في جميع ليالي العشر؛ أشفاعِهِ وأوتارِهِ، ورجَّحَه بعضُ أصحابنا، وقال: لأنَّ قول النبي ﷺ: «التمِسُوها في تاسعةٍ تبقى، أو سابعةٍ تبقَى، أو خامِسَةٍ تبقَى» إنْ حملْنَاهُ على تقدير كمالِ الشهر، كانت أشفاعاً، وإنْ حملْنَاهُ على ما يبقى منه حقيقةً كان الأمر موقوفاً على كمالِ الشهر، فلا يُعلم قبلَه. فإنْ كان تامًّا كانت الليالي المأمور بطلبها أشفاعاً، وإن كان ناقصاً كانت أوتاراً. فيوجِبُ ذلك الاجتهاد في القيام في كلا الليلتين؛ الشَّفْعِ منها والوِتْر.

وقال الأكثرون: بل بعضُ لياليه أَرْجَى من بعضٍ، وقالوا: الأوتار أرجَى في الجملةِ. ثم اختلفوا: في أيِّ أوتارِه أَرْجَى؛ فمنهم من قال: ليلة إحدَى وعشرين، وهو المشهور عن الشافعي؛ لحديث أبي سعيدٍ الخدريِّ، وقد ذكرناه فيما سبق. وحُكِي عنه أنَّها تُطْلَبُ ليلةَ إحدى وعشرين، وثلاثٍ وعشرين، قال في «القديم»: كأني رأيت ـ والله أعلم ـ أقوَى الأحاديث فيه ليلةَ إحدى وعشرين، وليلة ثلاثٍ وعشرين. [وهي التي مات فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه][2]. وقد جاء في ليلةِ سبعَ عشرَةَ، وليلةِ أربعٍ وعشرين، وليلةِ سبعٍ وعشرين. انتهى[3]. وقد روي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أنَّها تُطلب ليلة إحدى وعشرين وثلاثٍ وعشرين.

وحُكي للشافعي[4] قولٌ آخَرُ أنَّ أرجاها ليلةُ ثلاثٍ وعشرين. وهذا قولُ أهلِ المدينة. وحكاه سفيان الثورِيُّ عن أهل مكَّة والمدينة. وممن رُوي عنه «أنَّه كان يوقِظُ أهله فيها» ابنُ عباسٍ وعائشة، وهو قولُ مكحولٍ. وروى رِشْدِيْن بن سَعْدٍ، عن زُهْرَةَ بن مَعْبَدٍ، قال: أصابني احتلامٌ في أرض العدوِّ وأنا في البحر ليلةَ ثلاثٍ وعشرين

---

[1] في آ، ب، ش: «أرجا». [2] زيادة من المطبوع. [3] حتى قوله: «وثلاث وعشرين» ساقط في آ، وفي ش: «وفي المسند أيضاً من وجه آخر عن ابن مسعود عن علي...». [4] في آ: «وحكي للشافعي وأحمد».

في رمضانَ، فذهبْتُ لأغتسِلَ فسقطْتُ في الماء، فإذا الماءُ عَذْبٌ، فناديت أصحابي أعلمُهم أنِّي في ماءٍ عَذْبٍ. قال ابنُ عبد البرّ: هذه الليلة تُعْرَفُ بليلة الجُهَنيِّ بالمدينة، يعني عبد الله ابنَ أُنَيْسٍ؛ وقد رُوي عنه أن النبي ﷺ أمَرَه بقيامها.

وفي صحيح مسلم[1] عنه أنَّ النبي ﷺ قال في ليلة القدرِ: «أُرِيتُ أنِّي أسجدُ صبيحتَها في ماءٍ وطينٍ. فانصرَفَ النبي ﷺ من صلاةِ الصبح يومَ ثلاثٍ وعشرين وعلى جبهته أثرُ الماءِ والطِّين». وقال سعيد بن المسيّب: كان النبي ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فقال: ألا أُخبِرُكم بليلةِ القَدْر؟ قالوا: بلى، يا رسولَ الله، فسكَتَ ساعةً، فقال: لقد قلْتُ لكم ما قلْتُ آنفاً، وأنا أعلمها، ثم أُنسِيتُها، أرأيتُم يوماً كنَّا بموضع كذا وكذا، أيّ ليلةٍ هي؟ في غزوة غزاها، فقالوا: سِرنا فقفلنا[2] حتى استقام ملأُ القومِ على أنَّها ليلةُ ثلاثٍ وعشرين. خرَّجه عبدُ الرزاق[3] في كتابه.

ورجَّحَتْ طائفةٌ «ليلةَ أربعٍ وعشرين»، وهم الحسَنُ وأهلُ البصرة؛ وقد رُوي عن أنس. وكان حُمَيدٌ وأيّوبُ وثابتٌ يحتاطون فيجمَعون بين الليلتين، أعني ليلةَ ثلاثٍ وأربعٍ.

ورجَّحَتْ طائفةٌ ليلَةَ سبْعٍ وعشرين، وحكاه الثوريُّ عن أهل الكوفة، وقال: نحن نقول: هي ليلةُ سبْعٍ وعشرين، لما جاءَنا عن أبيّ بن كعبٍ. ومِمَّن قال بهذا أبيُّ بنُ كَعْبٍ ـ وكان يحلِفُ عليه ولا يستثني ـ وزِرّ بنُ حُبَيش، وعَبدة بن أبي لُبابة.

ورُوي عن قَنان[4] بن عبد الله النَّهْمِي، قال: سألت زِرًّا عن ليلةِ القَدْر، فقالَ: كان عُمَرُ وحذيفَةُ وأناسٌ مِن أصحاب النبي ﷺ لا يشُكُّون أنَّها ليلةُ سبْعٍ وعشرين.

---

[1] رقم (١١٦٨) في الصيام: باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها. [2] في آ: «ففعلنا».
[3] مصنف عبد الرزاق ٤/٢٤٩ في ليلة القدر. وانظر «الفتح الباري» ٤/٢٦٨ في فضل ليلة القدر.
[4] تحرف في النسخ، ففي المطبوع: «النهسي»، وفي آ: «حبان بن عبد الله السهمي»، وفي ع: «عباد بن عبد الله السهمي»، وفي ش: «قتادة بن عبد الله السهمي»؛ والمثبت من نسخة (ب). وهو قنان بن عبد الله النهمي، مقبول، من السادسة، ذكره ابن حبان في الثقات. (تهذيب التهذيب ١/٣٨٤).

خرَّجه ابنُ أبي شيبة[1]، وهو قولُ أحمدَ وإسحاقَ. وذهب أبو قلابَةَ وطائفةٌ إلى أنَّها تنتقِلُ في ليالي العشر. ورُوِي عنه أنَّها تنتقِلُ في أوتاره خاصَّةً. وممن قال بانتقالِها في ليالي العشر: المُزَنيُّ، وابنُ خُزَيمة. وحكاه ابنُ عبد البرِّ عن مالكٍ والثوريِّ والشافعي وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثَوْرٍ؛ وفي صِحَّة ذلك عنهم بُعْدٌ؛ وإنَّما قولُ هؤلاء أنَّها في العشـر، وتُطلَبُ في لياليه كُلِّه.

واختلفوا في أرجَى[2] لياليه كما سَبَقَ، واستدَلَّ مَن رجَّح ليلةَ سبْعٍ وعشرين بأنَّ أبيَّ بنَ كعبٍ كان يحلف على ذلك، ويقول: بالآية أو بالعلامة التي أخبرنا بها رسولُ الله ﷺ أنَّ الشمسَ تطلعُ في صبيحتها لا شُعَاعَ لها. خرَّجَه مسلم[3]. وخرَّجه أيضاً بلفظ آخر عن أبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه، قال: واللهِ، إنِّي لأعلم أيّ ليلةٍ هي، هي الليلةُ التي أمرَنا بها رسولُ الله ﷺ بقيامها، هي ليلةُ سبْعٍ وعشرين.

وفي مسند الإمام أحمد[4] عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله، إنِّي شيخٌ كبيرٌ عليلٌ يَشُقُّ عليَّ القيامُ، فمُرْني بليلةٍ [لعلَّ الله] يوفِّقني فيها لليلة القَدْرِ. قال:«عليك بالسابِعة». وإسنادُه على شرط البخاري.

ورَوى الإمام أحمدُ[5] أيضاً، قال: حدَّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن

---

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٣/٧٤ في الصيام. [2] في ب، ش: «أرجا». [3] أخرج مسلم رقم (٧٦٢) في صلاة المسافرين: باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، وفي الصيام: باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها، عن زِرّ بن حبيش، قال: سمعت أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه يقول: ـ وقيل له: إن عبد الله بن مسعود يقول: من قام السَّنة أصاب ليلة القَدْر ـ فقال أبيّ: واللهِ الذي لا إله إلا هو، إنَّها لفي رمضان ـ يحلِفُ لا يستثني ـ وواللهِ إنِّي لأعلم أيُّ ليلة هي، هي الليلةُ التي أمرَنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلةُ صبيحةِ سبعٍ وعشرين، وأمارتها أن تطلُع الشمس في صبيحة يومِها بيضاءَ، لا شُعاعَ لها. وفي رواية، قال: سألتُ أبيَّ بن كعب، فقلت: إن أخاك ابن مسعودٍ يقول: من يقم الحولَ يُصبْ ليلة القدر، فقال: رحمه الله، أراد ألا يَتَّكِلَ الناسُ، أمَا إنه قدعلم أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر، ثم حلف ـ لا يستثني ـ إنها ليلة سبع وعشرين، فقلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ فقال: بالعلامة ـ أو بالآية ـ التي أخبرنا رسول الله ﷺ: أنها تطلع الشمس يومئذٍ لا شعاع لها. [4] مسند أحمد ١/٢٤٠ وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٧٦ وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». [5] مسند أحمد ٢/٢٧ وإسناده صحيح. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٧٦ وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

عبد الله بن دينارٍ، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن كان منكم متحرِّيها فليتحرَّها ليلةَ سبعٍ وعشرين»، أو قال: «تحرَّوْها ليلةَ سبعٍ وعشرين»، يعني ليلَةَ القَدْرِ. ورواه شبابةُ ووهبُ بن جَرير، عن شعبة مثلَه. ورواه أسودُ بن عامرٍ عن شعبَةَ مثلَه، وزاد «في السبع البواقي».

قال شعبة: وأخبرني رجلٌ ثقةٌ عن سفيان أنَّه إنَّما قال: «في السَّبْع البواقي»، يعني لم يقُلْ ليلَةَ سبعٍ وعشرين. قال أحمد في رواية ابنه صالح: الثقةُ هو يحيى بن سعيد. قال شعبة: فلا أدري أيّهما. قال: ورواه عمروٌ، عن شعبةَ، وقال في حديثه: «ليلة سبْعٍ وعشرين»، أو قال: «في السَّبْعِ الأواخر» بالشَّكِّ، فرجَعَ الأمر إلى أنَّ شعبة شكَّ في لفظه. ورواه حمَّاد بن زيد، عن أيُّوبَ، عن نافعٍ، عن ابن عمر، قال: كانوا لا يزالون يقصّون على النبي ﷺ أنَّها الليلةُ السابعةُ من العشرِ الأواخر. فقال رسولُ الله ﷺ: «أرَى رُؤياكم قد تواطأتْ أنَّها ليلَةُ السابعةِ في العشر الأواخر، فمن كان متحرّيها فَلْيَتَحَرَّها ليلَةَ السابعةِ من العَشْر الأواخر». كذا رواه حنبلُ بنُ إسحاق، عن عارِمٍ، عن حمَّاد. وكذا خرَّجه الطحاويُّ[1]، عن إبراهيم بن مرزوق، عن عارِمٍ.

ورواه البخاري في «صحيحه»[2] عن عارمٍ، إلَّا أنَّه لم يذكر لفظةَ «ليلة السابعة»، بل قال: من كان مُتَحَرِّيها فَلْيَتَحَرَّها في العشر الأواخِرِ.

ورواه عبد الرزَّاق[3] في كتابه عن مَعْمَرٍ، عن أيُّوبَ، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي رأيتُ في النوم ليلَةَ القَدْرِ كأنَّها ليلَةُ سابعة، فقال رسولُ الله ﷺ: إني أرَى رؤياكم قد تواطأت أنَّها ليلةُ سابعةٍ، فمن كان متحرِّيها منكم فليتحرَّها في ليلة سابعةٍ. قال معمر: فكان أيُّوبُ يغتسِلُ في ليلةِ ثلاثٍ وعشرين، يُشير إلى أنَّه حمَلَها على سابعةٍ تبقى.

---

[1] شرح معاني الآثار ٣/٩١. [2] أخرجه البخاري ٤/٢٥٦ في فضل ليلة القدر، و ١٢/٣٧٩ في التعبير، ومسلم رقم (١١٦٥) في الصيام. وانظر اختلاف الروايات في «جامع الأصول» ٩/٢٤٣ - ٢٤٤. [3] مصنف عبد الرزاق ٤/٢٤٩ الحديث رقم (٧٦٨٨).

وخرَّجه الثعلبيُّ[1] في «تفسيره» من طريق الحسن بن عبد الأعلى، عن عبد الرزَّاق بهذا الإسناد، وقال: في حديثه «ليلة سابعةٍ تبقى»، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي أَرَى رؤياكم قَدْ تواطأَتْ على ثلاثٍ وعشرين، فمن كان منكم يريدُ أن يقومَ مِن الشهر شيئاً فليقُمْ ليلَةَ ثلاثٍ وعشرين». وهذه الألفاظ غيرُ محفوظةٍ في الحديث، والله أعلم.

وفي سنن أبي داود[2] بإسنادٍ رجالُه كلُّهم رجالُ الصحيح، عن معاويةَ، عن النبي ﷺ في ليلة القدر ليلة سبْعٍ وعشرين. وخرَّجه ابنُ حِبَّان[3] في صحيحه، وصحَّحه ابنُ عبد البرِّ؛ وله عِلَّةٌ، وهي وَقْفُه على معاويةَ. وهو أصحُّ عند الإمام أحمد[4] والدَّارقطني. وقد اختُلِف أيضاً عليه في لفظه. وفي المسند[5] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال: متى ليلَةُ القَدْر؟ فقال: من يذكُرُ منكم ليلَةَ الصَّهباوات؟ قال عبد الله: أنا، بأبي أنتَ وأُمِّي! وإنَّ في يدي لتَمَرات أتسحَّرُ بِهِنَّ مستتراً بمؤخِّرةِ رحلي[6] من الفجر، وذلك حين طلع القمرُ.

وخرَّجه يعقوب بن شيبَةَ[7] في مسنده، وزاد «وذلكَ ليلَةَ سبْعٍ وعشرين». وقال: صالحُ الإسناد.

والصَّهباوات: موضِعٌ بقُرْب خيبرَ. وفي المسند[8] أيضاً من وجهٍ آخر عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إنَّ ليلَةَ القَدْر في النصف مِن السَّبْعِ الأواخر من رمضانَ». وإذا حسبنا أوَّلَ السَّبع الأواخر ليلةَ أربعٍ وعشرين، كانت ليلةُ

---

[1] هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق؛ مفسر، من أهل نيسابور، وله «الكشف والبيان في تفسير القرآن»، ويعرف بتفسير الثعالبي، وهو مخطوط كما ذكر الزركلي رحمه الله في الأعلام ١/٢١٢. [2] رواه أبو داود رقم (١٣٨٦) في الصلاة: باب من قال سبع وعشرون. [3] صحيح ابن حبان ٥/٢٧٣ في الصوم: باب الاعتكاف وليلة القدر. [4] مسند أحمد ٥/١٣٢ من حديث أبي بن كعب. [5] مسند أحمد ١/٣٧٦ و ٣٩٦ و ٤٥٣. [6] في ب، ط: «رحل». [7] يعقوب بن شَيْبَة بن الصلت بن عصفور، أبو يوسف، السدوسي، البصري، البغدادي، عالم ثقة، صاحب «المسند» الكبير، العديم النظير المعلل، الذي تم من مسانيده نحو من ثلاثين مجلداً، ولو كمل لجاء في مائة مجلد. توفي سنة ٢٦٢ هـ. (سير أعلام النبلاء ١٢/٤٧٦). [8] رواه الإمام أحمد في مسنده ١/٤٠٦ و ٤٥٧ بأطول من هذا.

سبْعٍ وعشرين نصفَ السبْعِ ؛ لأنَّ قبلَها ثلاثُ ليالٍ، وبعدَها ثلاث ليالٍ. ومِمَّا يرجِّحُ أنَّ ليلَةَ القَدْر ليلَةُ سبْعٍ وعشرين أنَّها من السَّبْع الأواخر التي أمر النَّبي ﷺ بالتماسِها فيها، بالاتفاق. وفي دخول الثالثة والعشرين في السَّبعِ اختلافٌ سَبَقَ ذِكْرُه. ولا خلافَ أنَّها آكَدُ مِن الخامِسَةِ والعشرين. ومما يَدُلُّ على ذلك أيضاً حديثُ أبي ذَرٍّ في قيام النبي ﷺ بهم في أفراد السَّبْعِ الأواخر، وأنَّه قام بهم في الثالثة والعشرين إلى ثلث الليل، وفي الخامسة إلى نصف الليل، وفي السابعة إلى آخر الليل؛ حتى خَشُوا أن يفوتَهم الفلاحُ. وجَمَع أهلَه ليلتئذ، وجمَعَ النَّاسَ.

وهذا كُلُّه يَدُلُّ على تأكُّدها على سائر أفراد السبع والعشر. ومما يَدُلُّ على ذلك ما استشهَدَ به ابنُ عبَّاسٍ بحضرة[1] عمر رضي الله عنه والصحابة معه، واستحسَنَه عُمَرُ رضي الله عنه. وقد روي من وجوهٍ متعددةٍ، فروَى عبدُ الرزَّاق[2] في كتابه عن مَعْمَر، عن قتادَةَ وعاصمٍ، أنَّهما سمِعا عِكْرِمَةَ يقول: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: دعا عُمَرُ بنُ الخطاب أصحابَ محمد ﷺ، فسألَهم عن ليلة القَدْر، فأجْمَعُوا أنَّها في العشر الأواخِر. قال ابنُ عبَّاسٍ: فقلْتُ لعُمَرَ رضي الله عنه: إنِّي لأعلم ـ أو إنِّي لأظنُّ ـ أيَّ ليلةٍ هي. قال عمر: وأيَّ ليلةٍ هي؟ قلْتُ: سابعة تمضي، أو سابِعَة تبقَى من العشر الأواخر. فقال عُمَرُ رضي الله عنه: ومن أين علِمْتَ ذلك؟ قال: فقلْتُ: إنَّ اللهَ خَلَقَ سَبْعَ سمـوات، وسبع أرضين، وسبعةَ أيام، وأنَّ الدَّهر يدورُ على سبْع، وخلَقَ الله الإنسان من سَبْعٍ، ويأكل من سَبْعٍ، ويسجد على سبْعٍ، والطَّواف بالبيت سَبْع، ورَمْي الجمار سبْعٌ، لأشياء ذكرَهَا. فقال عمر رضي الله عنه: لقد فَطِنْتَ لأمرٍ ما فطِنَّا له.

وكان قتادة يزيدُ على[3] ابن عباس في قولـه «يأكل من سبْعٍ»، قال: هو قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فأنْبَتْنا فيها حبًّا. وعِنباً وقَضْباً. وَزَيْتُوناً ونخلاً. وحَدَائقَ غُلْباً. وَفَاكِهَةً وأبًّا ﴾[4]. ولكن في هذه الرواية أنها فـي سبْعٍ تمضي أو تبقَى، بالترديد في ذلك.

---

[1] في ش، ع: «بمحضر». [2] مصنف عبد الرزاق ٤/٢٤٦ الحديث رقم (٧٦٧٩). [3] في آ، ش، ع: «عن». [4] سورة عبس الآيات ٢٧ ـ ٣١.

وخرَّجه ابنُ شاهين من رواية عبد الواحد بن زياد، عن عاصم الأحول، حدثني لاحق بنُ حُمَيد وعكرمة، قالا: قال عُمَرُ رضي الله عنه: مَن يَعلم ليلَةَ القَدْرِ؟ فذكرَ الحديثَ بنحوه. وزاد أنَّ ابنَ عباس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: هي في العشر؛ في سبْعٍ تمضي أو سَبْعٍ تبقَى، فخالَفَ في إسناده وجعلَه مرسلاً، ورفع آخرهُ. روى ابنُ عبد البر بإسنادٍ صحيح من طريق سعيد بن جُبير، قال: كان ناسٌ من المهاجرين وَجَدوا على عُمَرَ في إدنائه ابنَ عباسٍ، فجمَعَهم ثم سألهم عن ليلةِ القَدْرِ، فأكثروا فيها، فقال بعضُهم: كُنَّا نراها في العشر الأوسط، ثم بلغنا أنَّها في العشر الأواخر، فأكثروا فيها؛ فقال بعضُهم: ليلَةَ إحدى وعشرين. وقال بعضُهم: ليلةَ ثلاثٍ وعشرين. وقال بعضُهم: ليلة سبعٍ وعشرين.

فقال عُمَرُ رضي الله عنه: يا بنَ عبَّاسٍ، تكلَّم، فقال: اللهُ أعلم. قال عُمَرُ: قد نعلَم أنَّ اللهَ يعلَمُ، وإنَّما نسألك عن علمك. فقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ، خلَقَ مِن خَلْقِه سَبْعَ سماواتٍ فاسْتَوَى عليهن، وخَلَقَ الأرضَ سبْعاً، وجَعَلَ عِدَّةَ الأيَّام سبْعاً، ورَمْيَ الجمار سبْعاً، وخَلَقَ الإنسانَ مِن سَبْعٍ، وجَعَلَ رِزْقَه مِن سَبْعٍ. فقال عُمَرُ: خُلِق الإنسان مِن سَبْع، وجعل رزقه من سبْعٍ، هذا أمرٌ ما فهمتُه، فقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَد خَلَقْنا الإنسانَ مِن سُلالةٍ من طِينٍ ﴾[1] حتى بلغ آخر الآيات، وقرأ ﴿ أنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ شقًّا. فأَنْبَتْنَا فيها حَبًّا. وَعِنَباً وقَضْباً وَزَيْتوناً ونخلاً. وحدائقَ غُلْباً. وفاكِهَةً وأبًّا. متاعاً لكُمْ ولأنعامِكُم﴾[2]، ثم قال: والأبُّ[3] للدوابِّ. وخرَّجه ابنُ سعدٍ في «طبقاتِهِ» عن إسحاقَ الأزرقِ، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير، فذكره بمعناه، وزاد في آخره: «قال: وأمَّا ليلَةُ القَدْر فما نراها إن شاء الله، إلا ليلة ثلاثٍ وعشرين يمضين، أو سبْعٍ يبقين». والظاهر أنَّ هذا سمِعَه سعيدُ بن جبير من ابن عبَّاسٍ، فيكون متَّصلاً.

---

[1] سورة المؤمنون الآية ١٢. [2] سورة عبس الآيات ٢٥ ـ ٣٢. [3] الأبُّ: المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم، كالكلأ والعشب.

ورَوَى عاصم بن كليبٍ، عن أبيه، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: دعا عُمَرُ الأشياخَ من أصحاب محمَّد ﷺ ذاتَ يومٍ، فقال لهم: إنَّ رسول الله ﷺ قال في ليلة القَدْر ما قَدْ علِمْتُم: «التمِسُوها في العشْرِ الأواخر وِتْراً»[1]، ففي أي الوتر ترونها؟ فقال رجل برأيهِ: إنها تاسعةٌ، سابِعةٌ، خامِسَةٌ، ثالثة. ثم قال: يا ابن عبَّاسٍ، تكلَّم، فقلْتُ: أقولُ برأيي؟ قال: عن رأيك أسألك، فقلْتُ: إنِّي سمِعْتُ اللهَ أكثَرَ مِن ذكر السَّبْعِ، وذَكَرَ باقيه بمعنى ما تقدَّم. وفي آخره: قال عُمَرُ رضي الله عنه: أعجزتم أن تقولوا مثلَ ما قال هذا الغلامُ الذي لم تستوِ شؤون رأسِه؟! خرَّجه الإسماعيلي في مسند عُمَرَ، والحاكم[2]، وقال: صحيحُ الإسناد. وخرَّجه الثعلبي في «تفسيره» وزاد «قال ابنُ عباسٍ: فما أُراها إلا ليلةَ ثلاثٍ وعشرين لسبْعٍ يَبقين». وخرَّج علي بن المديني في «كتاب العلل» المرفوع منه، وقال: هو صالح، وليس مما يحتج به.

وروى مُسلم[3] الملائي ـ وهو ضعيفٌ ـ عن مجاهد، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ عُمَرَ قال له: أخبرني برأيك عن ليلة القَدْرِ، فذَكَر معنَى ما تقدَّم. وفيه أنَّ ابنَ عباسٍ قال: لا أراها إلا في سبْعٍ يَبقين من رمضانَ، فقال عُمَرُ: وافَقَ رأيي رأيكَ. ورُوي بإسنادٍ فيه ضعفٌ، عن محمد بن كعبٍ، عن ابن عبَّاسٍ: أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه جَلَسَ في رَهْطٍ من أصحابِ النبي ﷺ، فتذاكروا ليلَةَ القَدْرِ، فذكر معنَى ما تقدَّم، وزاد فيه: عن ابن عباس أنه قال: وأعطي من المثاني سبعاً، ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سَبْع، وقسم الميراث في كتابه على سبْعٍ، ونقعُ في السُّجود من أجسادنا على سبْعٍ؛ وقال: فأُراها في السبع الأواخر من رمضانَ. وليس في شيءٍ من هذه الروايات أنَّها ليلَةُ سبْعٍ وعشرين جَزْماً، بل في بعضها الترديدُ بين ثلاثٍ وسبعٍ، وفي بعضها أنَّها ليلَةُ ثلاثٍ وعشرين؛ لأنَّها أوَّلُ السَّبْع الأواخر على رأيه.

وقد صحَّ عن ابن عبَّاسٍ أنَّه كان ينضحُ على أهله الماءَ ليلَةَ ثلاثٍ وعشرين.

---

[1] من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم، وقد مضى تخريجه. [2] رواه الحاكم في «المستدرك» ١/٤٣٧ ـ ٤٣٨ على شرط مسلم، ولم يخرجاه. [3] هو مسلم بن كيسان الضَّبِّيُّ، المُلَائي البرّاد الأعور، أبو عبد الله الكوفي، ضعيف، من الطبقة الخامسة. (التقريب ٢/٢٤٦).

خرَّجه عبد الرزَّاق[1]، وخرَّجه ابنُ أبي عاصمٍ مرفوعاً، والموقوف أصحُّ. وقد استنبط طائفةٌ من المتأخرين من القرآن أنَّها ليلَةُ سبْعٍ وعشرين من موضعين:

أحدهما: أنَّ الله تعالى كَرَّرَ ذِكْر ليلَةِ القَدْر في سورة القَدْر في ثلاثة[2] مواضع منها، وليلة القَدْرِ حروفُها تسْعُ حُروفٍ، والتسعُ إذا ضُرِبَت في ثلاثةٍ فهي سبْعٌ وعشرون.

والثاني: أنَّه قال: «سلام هي» فكلمة «هي» هي الكلمة السابعةُ والعشرون مِن السورة؛ فإنَّ كلماتها كلَّها ثلاثون كلمة.

قال ابنُ عطية[3]: هذا من مُلَح التفسير لا مِن مَتين العلم، وهو كما قال.

ومما استدَلَّ به من رجَّح ليلَةَ سَبْعٍ وعشرين بالآيات والعلامات التي رويت فيها قديماً وحديثاً؛ وبما وقع فيها من إجابةِ الدعوات، فقد تقدَّم عن أبيّ بن كعب أنَّه استدَلَّ على ذلك بطلوعِ الشَّمسِ في صبيحتها لا شُعَاعَ لها. وكان عَبْدَةُ بنُ أبي لُبابة يقولُ: هي ليلةُ سبْعٍ وعشرين، ويستدلُّ على ذلك بأنَّه قد جَرَّبَ ذلك بأشياءَ وبالنجوم. خرَّجه عبد الرزَّاق[4]. وروي عن عَبْدَةَ أنه ذاق ماء البحر ليلَةَ سبْعٍ وعشرين، فإذا هو عَذْبٌ؛ ذَكَره الإمامُ أحمدُ[5] بإسناده.

وطاف بعضُ السَّلَف ليلَةَ سبْعٍ وعشرين بالبيت الحرام، فرأى الملائكةَ في الهواء طائفين فوقَ رؤوس الناس. وروَى أبو موسى المديني من طريق أبي الشيخ الأصبهاني بإسنادٍ له عن حمَّاد بن شعيب، عن رجلٍ منهم، قال: كنت بالسَّواد، فلمَّا كان في العشر الأواخر جعلْتُ أنظرُ بالليل، فقال لي رجلٌ منهم: إلى أيِّ شيءٍ تنظُرُ؟ قلت: إلى ليلة القدر. قال: فَنَمْ، فإنِّي سأخبرك. فلما كان ليلة سبْعٍ وعشرين جاء وأخذ[6]

---

[1] مصنف عبد الرزاق ٤/٢٤٩ رقم (٧٦٨٦) في الصيام: باب في ليلة القدر. [2] في آ، ش، ع: «ثلاث». [3] هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، أبو محمد. كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية، من أوعية العلم. له «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» نشر بعضه في المغرب، وبعضه في مصر. توفي سنة ٥٤٢ هـ. [4] مصنف عبد الرزاق ٤/٢٥١ في الصيام: باب في ليلة القدر. [5] وأخرجه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٥/٢٢٩. [6] في آ، ع: «فأخذ».

بيدي، فذَهَبَ بي إلى النخل، فإذا النَّخْلُ واضِعٌ سَعَفَه في الأرض، فقال: لسنا نَرَى هذا في السَّنة كُلِّها إلاَّ في هذه الليلة. وذكر أبو موسى بأسانِيدَ لهُ أنَّ رجُلاً مُقْعَداً[1] دَعَا اللهَ ليلَةَ سبْعٍ وعشرين فأطلَقَهُ. وعن امرأة مقعَدَةٍ كذلك. وعن رجُلٍ بالبصرة كان أخرَسَ ثلاثين سنةٍ، فدَعَا اللهَ ليلَةَ سَبْعٍ وعشرين، فأُطلِقَ لسانُه فتكلَّمَ.

وذكر الوزير أبو المظفَّرِ بنُ هبيرة[2] أنَّه رأَى ليلةَ سبْعٍ وعشرين ـ وكانت ليلَةَ جُمُعَةٍ ـ باباً في السَّماء مفتوحاً، شامِيَّ الكعبة، قال: فظننْتُه حيال الحجرة النَّبَوِيَّة المقدَّسة، قال: ولم يزل كذلك إلى أن التفتُّ إلى المشرقِ لأنظُرَ طُلُوعَ الفَجْر، ثم التفَتُّ إليه فوجدْتُه قد غَابَ. قال: وإن وَقَعَ في ليلةٍ من أوتارِ العَشْرِ ليلَةُ جُمُعَةٍ، فهي أرجَى مِن غيرها. واعْلم أنَّ جميعَ هذه العلامات لا توجِبُ القطْعَ بليلَةِ القَدْر.

وقد رَوَى سَلَمةُ بن شَبيب[3] في كتاب «فضائل رمضان»: حدثنا إبراهيم ابن الحكم، حدثني أبي، قال: حدثني فَرْقَدٌ: أنَّ ناساً من الصحابة كانوا في المسجد فسمعوا كلاماً من السَّماء، ورأوا نوراً من السَّماء، وباباً من السَّماء، وذلك في شهر رمضانَ، فأخبروا رسولَ الله ﷺ بما رأوا، فزُعِمَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: أمَّا النُّورُ فنُورُ رَبِّ العِزَّة تعالى، وأمَّا البابُ فبابُ السَّماء، والكلامُ كلامُ الأنبياء، فكُلُّ شَهْرِ رمضانَ على هذه الحال، ولكنْ هذه ليلةٌ كُشِفَ غِطاؤها. وهذا مرسَلٌ ضعيف.

وأما العملُ في ليلة القَدْر فقد ثبَتَ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «مَن قام ليلةَ القَدْر إيماناً واحتساباً غُفِرَ لَهُ ما تقدَّم من ذنبه»[4]. وقيامُها إنَّما هو إحياؤها بالتهجُّد فيها والصَّلاةِ، وقد أمَرَ عائشة بالدُّعاء فيها أيضاً.

قال سفيان الثوريُّ: الدُّعاء في تلك الليلة أحبُّ إليَّ من الصَّلاة. قال: وإذا كان

---

[1] المُقْعَد: الأعرج. [2] هو يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني، أبو المظفر، من كبار الوزراء في الدولة العباسية، عالم بالفقه والأدب، ونعت بالوزير العالم العادل، وله عدة مؤلفات. مات سنة ٥٦٠ هـ. (الأعلام للزركلي ٨/١٧٥). [3] سلمة بن شبيب النيسابوري، أبو عبد الرحمن، من كبار رجال الحديث، حدث عنه مسلم وأرباب السُّنن، رحل إلى مصر، وتوفي بمكة سنة ٢٤٧ هـ. [4] أخرجه الشيخان، وقد سبق تخريجه.

يقرأ وهو يدعو ويرغبُ إلى الله في الدُّعاء والمسألة لعله يوافِقُ. انتهى. ومرادُه أنَّ كثرَةَ الدُّعاءِ أفضَلُ من الصَّلاة التي لا يكثُر فيها الدُّعاء، وإن قرأ ودَعَا كان حسناً. وقد كان النبي ﷺ يتهجَّدُ في ليالي رمضانَ، ويقرأ قراءةً مرتَّلةً، لا يمرُّ بآيةٍ فيها رحمةٌ إلا سألَ، ولا بآيةٍ فيها عذابٌ إلاَّ تعوَّذَ، فيجمَعُ بينَ الصَّلاةِ والقراءةِ والدُّعاء والتفكُّر. وهذا أفضَلُ الأعمال وأكمَلُها في ليالي العَشْرِ وغيرِها، والله أعلم. وقد قال الشعبيُّ في ليلة القدر: ليلُها كنهارِها.

وقال الشافعي في «القديم»: أَستَحِبُّ أن يكونَ اجتهادُهُ في نهارها كاجتهادِهِ في ليلها. وهذا يقتضي استحباب الاجتهادِ في جميع زمان العَشْر الأواخر، ليلِه ونهارِه، والله أعلم.

المحبُّون تطولُ عليهم الليالي فيعدُّونها عَدًّا لانتِظار ليالي العَشْرِ في كُلِّ عامٍ، فإذا ظفِرُوا بها نالوا مطلوبَهُم وخدمُوا محبوبَهم.

قد مَزَّقَ الحبُّ قميصَ الصَّبْرِ ... وقد غَدَوْتُ حائراً في أَمْرِي
آهٍ على تلك الليالي الغُرِّ ... ما كُنَّ إلَّا كليالي القَدْرِ
إن عُدْنَ لي مِن بَعْدِ هذا الهَجْرِ ... وفَّيْتُ للهِ بِكُلِّ نَذْرِ
* وقام بالحمدِ خطيبُ شُكْري *

رياحُ هذه الأسحار تحمِلُ أنينَ المُذْنِبين، وأنفاسَ المحبِّين، وقصَصَ التائبين، ثم تعودُ بِرَدِّ الجواب بلا كتاب.

أعلمتُمُ أنَّ النَّسِيمَ إذا سَرَى ... حَمَلَ الحديثَ إلى الحبيب كما جَرَى
جَهِلَ العذول[1] بأنَّني في حُبِّهم ... سَهَرُ الدُّجَى عندي أَلَذُّ مِن الكَرَى

فإذا وَرَدَ بريدُ بَرْدِ السَّحَر يحمِلُ ملطَّفاتِ الألطافِ، لم يفهمْها غيرُ مَن كُتِبَتْ إليه[2].

---

[1] في ب، ط: «الحبيب». [2] في هامش ع: «ولا يعقلها إلا كل مشتاق».

نسيمَ صَبَا نَجْدٍ مَتَى جئْتَ حامِلاً تحيَّتَهم فاطْوِ الحديثَ عَنِ الرَّكْبِ[1]
ولا تُذِعِ السِّرَّ المَصُونَ فإنَّني أغارُ على ذِكْرِ الأحِبَّةِ مِن صَحْبِي

يا يعقوبَ الهَجْرِ، قد هبَّتْ ريحُ يوسُفَ الوَصْلِ، فلو استنشقْتَ لعدْتَ بَعْدَ العَمَى بصيراً، ولَوَجَدْتَ ما كنْتَ لفقده فقيرا.

كان لي قلبٌ أعيشُ به ضَاعَ منِّي في تقلُّبِهِ
رَبِّ! فارْدُدْهُ عليَّ فَقَدْ عِيلَ صَبْرِي في تطَلُّبِهِ
وأَغِثْنِي ما دام بي رَمَقٌ يا غِياثَ المُسْتغِيثِ بِهِ

لو قام المذنبون في هذه الأسحار على أقدام الانكسار، ورفَعُوا قصصَ الاعتذار مضمونها: ﴿ يا أيُّها العَزيزُ مَسَّنا وأَهْلَنا الضُّرُّ وَجِئْنا ببضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فأَوْفِ لنا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ علينا ﴾[2] لبرز لهم التوقيع عليها ﴿ لا تَثْرِيبَ عليكُم اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لكُمْ وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمين ﴾[3].

أشكُو إلى اللهِ كما قَدْ شَكَى أولادُ يعقوبَ إلى يوسُفِ
قَدْ مَسَّنِي الضُّرُّ وأَنْتَ الَّذي تَعْلَمُ حالي وتَرَى مَوْقِفي
بِضَاعَتِيَ المُزْجَاةُ مُحْتَاجَةٌ إلى سَمَاحٍ مِن كريمٍ وَفِيْ
فَقَدْ أَتَى المِسْكِينُ مُسْتَمْطِراً جُودَكَ فارْحَمْ ذُلَّهُ واعْطِفِ
فأَوْفِ كَيْلِي وتَصَدَّقْ عَلَى هذا المُقِلِّ البَائسِ الأضْعَفِ

قالت عائشة رضي الله عنها للنبيِّ ﷺ: أرأيتَ إنْ وافقْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، ما أقولُ فيها؟ قال: قولي: «اللهم، إنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي»[4]. العَفُوُّ مِن أسماءِ الله تعالى، وهو المتجاوز عن سيِّئاتِ عبادِهِ، الماحِي لآثارِها عنهم[5]. وهو يُحِبُّ العَفْوَ؛

---

[1] هذا البيت لم يرد في نسخة (آ). [2] سورة يوسف الآية ٨٨. [3] سورة يوسف الآية ٩٢.
[4] أخرجه الترمذي رقم (٣٥٠٨) في الدعوات، باب رقم ٨٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال. وأخرجه أيضاً ابن ماجه رقم (٣٨٥٠) في الدعاء: باب الدعاء بالعفو والعافية، وأحمد في «المسند» ٦/١٧١ و ١٨٢ و ١٨٣. [5] وفي اللسان العَفُوُّ: من أسماء الله تعالى، وهو فَعُول من العَفْو، وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المَحْوُ والطَّمْسُ، وهو من أبنية المبالغة.

فيُحِبُّ أن يَعْفُوَ عن عبادِهِ، ويُحِبُّ مِن عِبَادِهِ أن يَعْفُوَ بعضُهُم عن بعضٍ؛ فإذا عَفَا بعضُهم عن بَعْضٍ عاملَهم بِعَفْوِهِ، وعَفْوُه أحَبُّ إليه من عُقُوبَتِه.

وكان النبي ﷺ يقول: «أعوذُ بِرضاكَ من سَخَطِكَ، وعفوِك[1] من عُقُوبَتِك»[2].

قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العَفْوُ أَحَبَّ الأشياء إليه لم يبتَلِ بالذَّنْبِ أَكْرَمَ النَّاسِ عليه. يشير إلى أنَّه ابْتلَى كثيراً من أوليائه وأحبابه[3] بشيءٍ من الذنوب؛ ليعامِلَهم بالعفو؛ فإنه سبحانه يُحِبُّ العَفْوَ. قال بعضُ السَّلف الصالح: لو علمتُ أَحَبَّ الأعمال إلى الله تعالى لأَجْهَدْتُ نفسي فيه. فرأى قائلاً يقولُ له في منامه: إنَّك تريدُ ما لا يكون، إنَّ الله يُحِبُّ أن يَعْفُوَ ويَغْفِرَ؛ وإنما أَحَبَّ أن يَعْفُوَ؛ ليكونَ العِباد كلُّهم تحتَ عَفْوِه، ولا يُدِلُّ عليه أحَدٌ منهم بعمَلٍ. وقد جاء في حديثِ ابن عبَّاسٍ مرفوعاً «إن الله ينظُر ليلَةَ القَدْر إلى المؤمنين من أمةِ محمَّدٍ ﷺ فَيَعْفُو عنهم ويرحَمُهُم، إلا أربعةً: مُدْمِنَ خَمْرٍ، وعاقاً، ومشاحِناً، وقاطِعَ رحمٍ».

لمَّا عَرَفَ العارِفون جلاله[4] خَضَعُوا، ولمَّا سمِعَ المذنبون بِعَفْوِه طمِعُوا، ما ثم إلَّا عفو الله أو النار. لولا طَمَعُ المذنبين في العَفْوِ لاحتَرَقَتْ قلوبُهم باليأس من الرَّحمة، ولكن إذا ذكرَتْ عَفْوَ اللهِ استرْوَحَتْ إلى بَرْدِ عَفْوِه. كان بعضُ المتقدِّمين يقولُ في دعائه: اللهم، إنَّ ذنوبي قد عظُمت فجلَّتْ عن الصِّفة، وإنها صغيرة[5] في جَنْبِ عَفْوِك؛ فاعْفُ عَنِّي. وقال آخر منهم: جُرْمي عظيمٌ، وعَفْوُكَ كبيرٌ[6]؛ فاجْمَعْ بين جُرْمي وعَفْوِك يا كريم.

يا كبيرَ الذَّنْبِ عَفْوُ اللَّهِ مِن ذَنْبِكَ أكبَرُ
أكبَرُ الأوزارِ في جَنْبِ عَفْوِ اللَّهِ يصغُرُ

وإنما أمر بسؤال العَفْوِ في لَيْلَةِ القَدْر بعدَ الاجتهاد في الأعمال فيها وفي

---

[1] في آ: «وبعفوك»، والمشهور: بمعافاتك. [2] قطعة من حديث أخرجه مسلم رقم (٤٨٦) في الصلاة: باب ما يقال في الركوع والسجود، والموطأ ١/٢١٤ في القرآن: باب ما جاء في الدعاء، وأبو داود رقم (٨٧٩) في الصلاة، والترمذي رقم (٣٤٩١) في الدعوات باب رقم (٧٨)، والنسائي ٢/٢٢٥، وابن ماجه رقم (٣٨٤١). [3] في آ: «وأصفيائه»، وفي ش: «وأحبَّائه». [4] في ش: «جلالته»، وفي ط: «بجلاله». [5] في آ، ع: «صغرت». [6] في ب، ط: «كثير».

ليالي العشر؛ لأنَّ العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحاً[1]، ولا حالاً، ولا مقالاً، فيرجعون إلى سؤالِ العَفْوِ، كحالِ المُذْنِبِ المقصِّرِ. قال يحيى بنُ معاذٍ: ليس بعارفٍ مَن لم يكنْ غايةُ أملِهِ من الله العَفْوَ.

إنْ كُنْتُ لا أَصْلُحُ لِلْقُرْبِ فشأنُكم عَفْوٌ عَنِ الذَّنْبِ

كان مُطَرِّفٌ يقولُ في دعائه: اللهم، ارضَ عنَّا، فإن لم تَرْضَ عنَّا فاعْفُ عنَّا. مَن عظُمَتْ ذُنوبُه في نَفْسِه لم يَطْمَعْ في الرِّضا، وكان غايةُ أملِه أن يطمَعَ في العَفْوِ. ومَن كَمُلَتْ معرفَتُهُ لم يَرَ نفسَهُ إلَّا في هذه المنزلة.

يا رَبِّ عبدُكَ قد أتا كَ وقَدْ أَساءَ وقَدْ هَفَا
يَكْفِيهِ[2] مِنْكَ حَياؤُهُ مِنْ سُوءِ ما قَدْ أَسْلَفَا
حَمَلَ الذُّنُوبَ على الذُّنُو بِ المُوبِقاتِ وأَسْرَفا
وقد اسْتَجارَ بِذَيْلِ عَفْـ ـوِكَ مِن عِقابِكَ مُلْحِفا
يا ربِّ فاعفُ وعافِهِ[3] فلأنْتَ أَوْلَى مَنْ عَفَا

* * *

المجلس السادس
في وداع رمضان

في «الصحيحين»[4] مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «مَن صَامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِرَ لَهُ ما تقدَّم مِن ذَنْبِه. ومَن قام ليلَةَ القَدْر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه». وفيهما أيضاً من حديثِ أبي هريرة أيضاً

---

[1] لفظ «صالحاً» لم يرد في آ، ش. [2] في ش: «يكفيك منه». [3] في ط: «رب اعف عنه وعافه»، وفي ب، ش، ع: «يا رب فاعف عنه وعافه»، وأثبت ما جاء في نسخة (آ). [4] أخرجه البخاري رقم (١٩٠١) في الصوم: باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً، وفي الإيمان: باب قيام ليلة القدر من الإيمان، وباب تطوع قيام رمضان من الإيمان، وباب صوم رمضان احتساباً من الإيمان، وفي صلاة التراويح: باب فضل من قام رمضان، وباب فضل ليلة القدر. ومسلم رقم (٧٥٩) في صلاة المسافرين: باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح.

رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «مَن قام رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِرَ لَهُ ما تقدَّم مِن ذَنْبه».

وللنسائي في روايةٍ[1]: «مَن صامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدَّم مِن ذَنْبِه وما تأخَّر».

وقَد سَبَقَ في قيام ليلةِ القَدْر مثلُ ذلك مِن رواية عُبَادَةَ بن الصَّامت. والتكفيرُ بصيامه قد وَرَدَ مشروطاً بالتحفُّظِ مِمَّا ينبغي أن يُتحفَّظَ منه. ففي «المسند»[2] و«صحيح ابن حِبَّان» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «مَن صام رمضانَ فعرَفَ حُدُودَه وتحفَّظ مِمَّا ينبغي له أن يتحفَّظَ منه، كفَّر ذلك ما قبلَه». والجمهور على أن ذلك إنَّما يكفِّر الصغائرَ، ويدُلُّ عليه ما خرَّجه مسلم[3] من حديثِ أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «الصَّلوات الخمسُ، والجُمُعَةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضَانَ، مكفِّراتٌ لِما بينهنَّ، ما اجتُنِبَتِ الكبائر». وفي تأويله قولان:

أحدُهما: أن تكفِيرَ هذه الأعمال مشروطٌ باجتناب الكبائر، فمن لم يجتنِبِ الكبائرَ لم تكفِّر له هذه الأعمالُ كبيرةً ولا صغيرةً.

والثاني: أنَّ المراد أنَّ هذه الفرائض تكفِّرُ الصغائرَ خاصَّةً بكُلِّ حالٍ، وسواء اجتُنِبت الكبائرُ أو لم تُجتَنَبْ، وأنَّها لا تكفِّر الكبائرَ بحالٍ.

وقد قال ابنُ المنذر في قيام ليلَةِ القَدْر: إنَّه يُرْجَى به مغفرةُ الذنوبِ؛ كبائرِها وصغائرِها. وقال غيرُه مثلَ ذلك في الصَّوم أيضاً. والجمهور على أنَّ الكبائرَ لا بُدَّ لها من توبةٍ نَصُوحٍ. وهذه المسائل قد ذكرناها مستوفاةً في مواضِعَ أُخَرَ.

فدَلَّ حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه على أنَّ هذه الأسبابَ الثلاثَة كُلَّ واحدٍ منها

---

[1] النسائي ٤/١٥٥ - ١٥٧ في الصوم: باب ثواب من قام رمضان إيماناً واحتساباً. [2] مسند أحمد ٣/٥٥، وصحيح ابن حبان (٨٧٩) موارد، والترغيب والترهيب ٢/٩١. [3] رقم (٢٣٣) في الطهارة: باب الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن. وروى الأول منه الترمذي رقم (٢١٤) في الصلاة: باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس.

مكفِّرٌ لِما سَلَفَ من الذُّنوبِ، وهي صيامُ رمضانَ، وقيامُهُ، وقيامُ ليلَةِ القَدْر. فقيامُ ليلَةِ القَدْر بمجردِهِ يكفِّر الذنوبَ لمن وَقَعَتْ له، كما في حديث عُبَادَةَ بن الصَّامت، وقد سَبَقَ ذكره. وسواءٌ كانت في أوَّل العَشْر أو أوْسَطه أو آخره، وسواءٌ شَعَرَ بها أو لم يَشْعُر. ولا يتأخَّرُ تكفيرُ الذنوب بها إلى انقضاءِ الشَّهْرِ.

وأمَّا صيامُ رمضانَ وقيامُه، فيتوقَّفُ التكفيرُ بهما على تمام الشهر، فإذا تمَّ الشَّهْرُ فقد كَمُلَ للمؤمِنِ[1] صيامُ رَمَضَانَ وقيامُه، فيترتَّبُ له على ذلك مغفِرةُ ما تقدَّم من ذَنْبِه بتمام السَّببين، وهما صيامُ رمضان وقيامُه. وقد يقال: إنه يُغفر لهم عند استكمال القيام في آخر ليلةٍ من رمضان، بقيامِ رمضان قبلَ تمامِ نهارِها، وتتأخَّر المغفرة بالصيام إلى إكمال النهار بالصَّوم، فيغفَرُ لهم بالصوم في ليلة الفِطْر. ويدلُّ على ذلك ما خرَّجه الإمام أحمد[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيَتْ أمتي خَمسَ خِصالٍ في رمضانَ لم يُعْطَها أمَّةٌ غيرُهم: خُلُوفُ فمِ الصَّائمِ أطيَبُ عندَ اللهِ مِن ريح المِسْكِ، وتَستغفِرُ لهم الملائكة حتَّى يُفْطِروا، ويُزَيِّنُ اللهُ كُلَّ يومٍ جنَّته، ويقولُ: يوشِكُ عبادِي أن يُلقوا[3] عنهم المؤونة والأذَى ويَصيروا إليك، ويصفَّدُ فيه مَرَدَةُ الشَّياطين؛ فلا يخلُصُون فيه إلى ما كانوا يخلُصُون إليه في غيره، ويُغفر لهم في آخر ليلةٍ فيه، فقيلَ له: يا رسولَ اللهِ، أهِيَ ليلَةُ القَدْرِ؟ قال: لا، ولكن العامِلِ إنما يوفَّى أجْرَه إذا قَضَى عَمَلَه».

وقد رُوِي أنَّ الصَّائمين يَرجعون يومَ الفِطْرِ مغفوراً لهم، وأنَّ يومَ الفِطر يُسمَّى يومَ الجوائز؛ وفيه أحاديث ضعيفة. وقال الزُّهريّ: إذا كان يومُ الفِطْر خَرَجَ النَّاسُ إلى الجَبَّان[4] اطَّلَع الله عليهم، فقال: عبادِي! لي صمْتُمْ، ولي قمتُمْ، ارْجِعُوا مغفوراً لكم. قال مورِّقُ العِجْليُّ لبعض إخوانه في المصَلَّى يومَ الفِطْر: يَرجعُ هذا اليوم قومٌ كما

---

[1] في ع: «للمؤمنين». [2] مسند أحمد ٢/٢٩٢، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٣/١٤٠ وقال: رواه أحمد والبزار، وفيه هشام بن زياد أبو المقدام، وهو ضعيف. وانظر المطالب العالية (٩٣٢) ومشكل الآثار ٤/١٤٢. [3] في ط: «يكفوا». [4] في ب، ط: «الجبار». والجَبار: فناء الجَبَّان. والجَبَّان بمعنى الجَبَّانة، ثبوت الهاء أكثر من حذفها، وهي المصلَّى في الصحراء، وربَّما أطلقت على المقبرة؛ لأنَّ المصلَّى غالباً تكون في المقبرة. (اللسان، والمصباح المنير: جبر، جبن).

ولدتهُم أمَّهاتُهم. وفي حديث أبي جعفر الباقر المرسل: «مَن أتى عليه رمضانُ فصَامَ نهارَهُ، وصلَّى وِرْداً مِن ليله، وغَضَّ بَصَرَه، وحفِظَ فَرْجَهُ ولسانَه ويَدَه، وحافَظَ على صلاتِهِ في الجماعة، وبكَّر إلى جمعةٍ[1]، فقد صام الشَّهْرَ واستكملَ الأجْرَ، وأدرَكَ ليلَة القَدْرِ، وفاز بجائزة الرَّبِّ». قال أبو جعفر: جائزةٌ لا تشبِه جوائزَ الأمراءِ. إذا كمَّل[2] الصائمون صيامَ رمضانَ وقيامَه، فقد وفَّوْا ما عليهم من العَمَلِ، وبقي ما لهم من الأجر وهو المغفرة؛ فإذا خَرَجُوا يومَ عيدِ الفِطْر إلى الصَّلاة قُسِّمَتْ عليهم أجورُهم، فرجعوا إلى منازِلهم وقد استَوْفَوا الأجْرَ واستكملوه، كما في حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما المرفوع: «إذا كان يومُ الفِطْرِ هَبَطَتِ الملائكةُ إلى الأرض، فيقومون[3] على أفواه السِّكَكِ يُنادُونَ بِصَوْتٍ يسمَعُهُ جميعُ مَن خَلَقَ الله، إلَّا الجِنَّ والإنسَ، يقولون: يا أمَّةَ محمدٍ! اخرُجوا إلى رَبٍّ كريمٍ يُعطِي الجَزِيلَ، ويغفِرُ الذَّنْبَ العظيم، فإذا برزوا إلى مُصلَّاهم، يقولُ الله عزَّ وجلَّ لملائكته: يا ملائكتي! ما جزاءُ الأجير إذا عمِلَ عملَهُ؟ فيقولون: إلٰهنا وسيِّدنا! أنْ توفِّيَه أَجْرَهُ، فيقول: إنِّي أُشهِدُكُم أنِّي قد جَعَلْتُ ثوابَهم مِن صيامِهم وقيامِهم رضائي[4] ومغفرتي، انصرِفوا مغفوراً لكم. خرَّجه سلمة بنُ شبيبٍ في كتاب «فضائل رمضان» وغيره. وفي إسناده مقالٌ.

وقد رُوي من وجهٍ آخر عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما موقوفاً بعضُه.

وقد رُوِي معناه مرفوعاً من وجوهٍ أخَرَ فيها ضعفٌ؛ مَنْ وفَّى ما عليه من العمل كاملاً وُفِّي له الأجْرُ كاملاً، ومَن سَلَّم ما عليه موفَّراً تسَلَّم ماله نقداً لا مؤخَّراً.

ما بِعتُكم مهجَتي إلا بوَصْلِكُمُ ... ولا أُسَلِّمُها إلَّا يداً بيدِ
فإنْ وَفَيْتُمْ بما قلْتُمْ وَفَيْتُ أنا[5] ... وإن أبيْتُم يكونُ الرَّهْنُ تحتَ يَدِي[6]

---

[1] في آ: «جُمَعِه»، وفي ع: «الجمعة». [2] في ب، ط: «أكمل». [3] في آ، ع: «فيقفون». [4] في آ، ع: «مرضاتي». [5] في ب: «وفيت لكم». [6] هذا البيت لم يرد في آ، ش، ع.

ومَن نقص من العمل الذي عليه نُقِّصَ من الأجر بحسب نَقْصِه، فلا يَلُم إلاَّ نفسَه. قال سلمان: الصَّلاةُ مِكْيالٌ، فمن وفَّى وُفِّي له، ومن طَفَّفَ فَقَد علمتُم ما قيل في المطفِّفين[1]. فالصِّيامُ وسائرُ الأعمال على هذا المنوالِ؛ مَن وفَّاها فهو من خِيارِ عِبادِ اللهِ الموفِّين[2]، ومَنْ طفَّفَ فيها فويلٌ للمطفِّفين. أَمَا يستحيي مَن يستَوْفي مِكْيالَ شَهَواتِهِ، ويطفِّفُ في مِكْيالِ صيامِهِ وصلاتِه، ألا بُعْداً لِمْدَين[3]. في الحديث: «أسوأُ الناسِ سرقةً الذي يَسْرِقُ صلاتَه»[4]. إذا كان الوَيْلُ لمن طَفَّفَ مِكيالَ الدُّنيا، فكيف حالُ مَن طفَّف مِكيالَ الدِّين! ﴿فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّين. الَّذين هُمْ عَن صَلاَتِهِم سَاهُون﴾[5].

غداً تُوفَّى النفوسُ ما كسَبَتْ ... ويحصُدُ الزَّارِعونَ ما زَرَعوا
إنْ أحسَنُوا أحسَنُوا لأنفُسِهم ... وإن أساؤوا فبئسَ ما صَنَعُوا

كان السَّلفُ الصَّالح يجتهدون في إتمام العمَلِ وإكماله وإتقانه، ثم يهتمُّون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من رَدِّه، وهؤلاء الذين ﴿يُؤْتُون ما آتوا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[6]. رُوي عن علي رضي الله عنه، قال: كونوا لقَبُولِ العَمَلِ أشدَّ اهتماماً منكم بالعمل، ألم تسمَعُوا اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِن المُتَّقِين﴾[7]. وعن فَضَالَةَ بن عُبيد[8]، قال: لأنْ أكونَ أعلَمُ أنَّ الله قد تقبَّلَ منِّي مِثْقالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إنَّما يتقبَّلُ اللهُ مِن المتقين﴾.

---

[1] أي: في قوله تعالى من سورة المطففين: ﴿ويلٌ للمطفِّفين. الذين إذا اكتالوا على النَّاس يستوفون. وإذا كالُوهم أو وَزَنُوهُم يُخْسِرون﴾. [2] في ش: «المؤمنين»، ولم ترد لفظة «الموفِّين» في نسخة (آ). [3] في ش: «للمذنبين». والبعد: الهلاك، والتباعد من الخير. أي لا زالوا مبعدين عن رحمة الله كما بعدت مدين التي أهلكها الله. [4] رواه أحمد في «المسند» ٥/٣١٠ عن أبي قتادة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق في صلاته. قالوا: يا رسول الله! وكيف يسرق من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها». صححه الحاكم ١/٢٢٩ ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني عن أبي هريرة. وفي الموطأ ١/١٦٧ عن النعمان بن مُرَّة، بنحوه. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/١٢٠ وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح». [5] سورة الماعون الآية ٤ و ٥. [6] سورة المؤمنون الآية ٦٠. [7] سورة المائدة الآية ٢٧. [8] هو فَضَالة بن عُبَيد بن نافذ بن قيس، أبو محمد الأنصاري الأوسي، صاحب رسول الله ﷺ، من أهل بيعة الرضوان. ولي الغزو لمعاوية، ثم ولي له قضاء دمشق. مات سنة ٥٨ هـ، وقيل قبلها. (ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣/١١٣ - ١١٧ وأورد الخبر).

وقال ابنُ دينار[1]: الخوفُ على العمل أن لا يُتَقَبَّلَ أشَدُّ مِن العَمَل. وقال عطاء السَّليمي[2]: الحذرُ: الاتقاءُ على العمل أن لا يكونَ لله. وقال عبد العزيز بن أبي رَوَّاد[3]: أدركتُهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فَعَلُوه وَقَعَ عليهم الهمُّ، أيقبَلُ[4] منهم أم لا.

قال بعضُ السَّلف: كانوا يدعُون الله ستَّةَ أشهرٍ أن يُبلِّغَهم شَهْرَ رمضان، ثم يدعون الله ستَّةَ أشْهُرٍ أن يتقبَّلَهُ منهم.

خرَجَ عمرُ بنُ عبد العزيز رحمه الله في يومِ عيدِ فِطْرٍ، فقال في خُطبته: أيُّها الناس! إنَّكم صُمتم لله ثلاثين يوماً، وقُمْتُم ثلاثين ليلَةً، وخَرَجْتُم اليومَ تطلبون من الله أن يتقبَّل[5] منكم. كان بعضُ السَّلف يَظْهَرُ عليه الحزنُ يومَ عيدِ الفِطْر، فيقال له: إنَّه يومُ فَرَحٍ وسرورٍ، فيقول: صدقتم، ولكنِّي عبدٌ أمرني مولاي أن أعمَلَ له عملاً، فلا أدري أيقبلُه منِّي أم لا؟

رأى وُهَيْبُ[6] بنُ الورد قوماً يضحكون في يومِ عيدٍ، فقال: إن كان هؤلاء تُقُبِّلَ منهم صيامُهم فما هذا فعلُ الشاكرين، وإن كانوا لم يُتَقَبَّلْ منهم صيامهم فما هذا فعلُ الخائفين. وعن الحسن، قال: إنَّ الله جَعَلَ شَهْرَ رمضانَ مضماراً[7] لخلقه يستبِقُون فيه بطاعتِه إلى مَرْضَاتِه، فَسَبَقَ قَوْمٌ ففازوا، وتخلَّف آخرون فخابُوا. فالعجَب من اللاعِب الضَّاحِك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطِلُون.

---

[1] في ع: «مالك بن دينار». وكنيته أبو يحيى، زاهد، عابد، صدوق، معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف. مات نحو سنة ١٣٠ هـ. (سير أعلام النبلاء ٥/٣٦٢). [2] في ط، ش، ع: «السلمي». وهو أبو عبد الله بن أبي عبيدة البصري، من صغار التابعين، أدرك أنس بن مالك وسمع من الحسن البصري. كان زاهداً عابداً، وله حكايات في الخوف وإزرائه على نفسه. قيل: مات بعد سنة ١٤٠ هـ. (صفة الصفوة ٣/٣٢٥، سير أعلام النبلاء ٦/٨٦). [3] شيخ الحرم، وأحد الأئمة العبّاد، صدوق، رمي بالإرجاء، توفي سنة ١٥٩ هـ. (سير أعلام النبلاء ٧/١٨٤). [4] في آ: (تُقُبِّلَ أم لا»، وفي ع: «أتقبل أم لا». [5] في آ، ش: «يتقبَّله منكم». [6] في ط: «وهب». وهو وُهَيْب بن الورد القرشي، أبو عثمان المكي الزاهد، وثقه ابن معين والنسائي، روى له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. قال ابن حبان: مات سنة ١٥٣ هـ. [7] لفظ «مضماراً» لم يرد في آ، ش، ع.

لعلك غضبان وقلبيَ غافلُ سلامٌ على الدَّارين إن كنْتَ راضِيا

رُوِي عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه كان ينادِي في آخر ليلةٍ من شهر رمضانَ: يا ليتَ شِعْرِي! مَن هذا المقبول فنهنِّيه؟ ومَن هذا المحرومُ فنُعَزِّيه؟ وعن ابن مسعودٍ أنَّه كان يقول: مَن هذا المقبُولُ منَّا فنُهنِّيه؟ ومَن هذا المحرومُ منَّا فنعزِّيه؟ . أيُّها المقبولُ هنيئاً لكَ، أيُّها المردود جَبَرَ اللهُ مُصيبتك!

ليتَ شِعْرِي مَنْ فيه يُقْبَلُ مِنَّا فيُهَنَّا يا خيبةً[1] المَرْدُودِ
مَنْ تولَّى عنهُ بغيْرِ قَبُولٍ أَرْغَمَ اللهُ أنفَهُ بِخِزيٍ شَدِيدِ

ماذا فات مَنْ فاته خيرُ رمضانَ؟ وأيّ شيءٍ أدرَكَ مَن أدرَكَه فيه الحرمانُ؟ كم بينَ مَن حَظُّهُ فيه القَبولُ والغفرانُ، ومَن كان حظُّه فيه الخَيبةُ والخُسْرَانُ. رُبَّ قائمٍ حظُّه مِن قيامِه السَّهَرُ، وصائمٍ حظُّه من صيامِهِ الجُوعُ والعَطَشُ.

ما أصنعُ؟ هكذا جَرَى المقدورُ الجَبْرُ لغيري وأنا المكسُورُ
أَسيرُ ذنبٍ[2] مقيَّدٌ مهجُورُ هل يُمكنُ أن يُغيَّر المقدورُ

[غيره][3]:

سار القوم والشَّقا يُقعِدُني حَازُوا القربَ والجَفَا يُبعِدُني[4]
حسبي حسبي إلى متى تطرُدني أعداي دائي وكلُّهم يقصِدُني

غيره:

أسبابُ هواكَ أَوْهَنَتْ أَسْبَابي مِن بَعْدِ جَفَاكَ فالضَّنَى أَوْلَى بي
ضاقَتْ حِيَلي وأَنْتَ تدرِي ما بي ارْحم[5]، فالعَبْدُ واقفٌ بالبابِ

شهرُ رمضانَ تكثُر فيه أسبابُ الغفران؛ **فمن أسباب المغفرة فيه: صيامُه،**

---

[1] في آ، ش: «ويا خيبة». [2] في آ: «ذنبي». [3] زيادة من ع، ط. [4] روايته في ش:

من سار إليك فالشقا يقـ ـدني
أو حاز رضاك فالجَفَا يبعدني

[5] في ب، ط: «فارحم».

وقيامُه، وقيامُ ليلَةِ القَدْر فيه، كما سبق. ومنها: تفطيرُ الصُّوَّام، والتخفيفُ عن المملوك، وهما مذكوران في حديث سلمان المرفوع. ومنها: الذكر. وفي حديثٍ مرفوع: «ذاكِرُ اللهِ في رمضانَ مغفورٌ له»[1]. ومنها: الاستغفارُ، والاستغفارُ طلَبُ المغفرةِ. ودعاءُ الصَّائم يستجابُ في صيامِه وعند فِطْره؛ ولهذا كان ابنُ عمر إذا أفطَرَ يقولُ: اللهم، يا واسِعَ المغفرة اغفر لي. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرفوع في فضل شهر رمضان: ويغفَرُ فيه إلَّا لمن أَبَى، قالوا: يا أبا هريرة! ومَن يأبى؟ قال: يأبَى أن يستغفرَ اللهَ. ومنها: استغفارُ الملائكة للصَّائمين حتى يُفطِروا، وقد تقدَّم ذكرُه.

فلما كثُرَتْ أسبابُ المغفرة في رمضان كان الذي تفوتُه المغفرةُ فيه محروماً غايةَ الحرمان.

في «صحيح ابن حبَّان»[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ صَعِدَ المِنْبَرَ فقال: آمين، آمين، آمين! قيل: يا رسولَ الله، إنَّك صَعِدْتَ المِنْبَرَ فقلت: آمين آمين آمين؟ قال: إنَّ جبريل أتاني، فقال: مَنْ أدْرَكَ شهرَ رمضانَ فلم يُغْفَرْ له فدَخَلَ النار، فأبعَدَهُ الله، قل: آمين، فقلت: آمين. ومَن أدرَكَ أبوَيْه أو أحدَهما فلم يبرَّهما، فمات، فدَخَلَ النار، فأبعَدَهُ الله، قل: آمين، فقلت: آمين. ومَن ذُكِرْتَ عندَه فلم يُصَلِّ عليك، فمات، فدخَلَ النار فأبعَدَه الله، قل: آمين، فقلت: آمين. وخرَّجه الإمام أحمد[3]، والترمذي، وابنُ حِبَّان أيضاً من وجهٍ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ «رِغمَ أنفه». وحسَّنه الترمذيّ. وقال سعيدٌ عن قتادة: كان يقال: من لم يُغْفَرْ لَهُ في رمضانَ فلن يغفَرَ له فيما سواه.

---

[1] أورده السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٤٣١٢) وعزاه إلى الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٤٣/٣ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه هلال بن عبد الرحمٰن وهو ضعيف». وهو في «ضعيف الجامع الصغير» للألباني رقم (٣٠٣٨)، وانظر الترغيب والترهيب ١٠٤/٢. [2] صحيح ابن حبان ١٢١/٢ باب حق الوالدين، وإسناده ضعيف، وانظر تخريجه فيه. وانظر الترغيب والترهيب ٩٣/٢، ٥٠٧. [3] مسند أحمد ٢٥٤/٢، والترمذي رقم (٢٥٣٩) في الدعوات: باب رقم (١١٠)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. والحديث صحيح، له شواهد كثيرة عن جماعة من الصحابة خرجها الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» ٥٠٦/٢ ـ ٥٠٨.

وفي حديثٍ آخَرَ: «إذا لم يُغفَرْ له في رمضان فمتى يُغفَرُ لمن لا يغفَر[1] له في هذا الشهر؟ متى يقبَلُ مَن رُدَّ في ليلة القدر؟ متى يصلُح من لا يصلُح في رمضان؟ متى يصح من كان به فيه من داءِ الجهالة والغفلةِ مَرضان؟ كُلُّ ما لا يثمِرُ من الأشجار في أوان الثمار؛ فإنَّه يُقطَعُ ثمَّ يوقَدُ في النار. من فرَّط في الزَّرْع في وقت البِذار، لم يحصُدْ يومَ الحصاد غيرَ النَّدم والخَسَار.

ترحَّلَ الشَّهرُ وا لهفاهُ وانْصَرَما[2] واخْتَصَّ بالفوز في الجنَّاتِ مَن خَدَما
وأصبَحَ الغافِلُ المِسْكِينُ منكسِراً مثْلِي فيا وَيْحَهُ يا عُظْمَ ما حُرِمَا
من فاتَهُ الزَّرْعُ في وَقْتِ البذارِ فَمَا تراهُ يحصُدُ إلاَّ الهَمَّ والنَّدَما

شهر رمضان شهرٌ أوَّله رحمةٌ، وأوسَطُه مغفرةٌ، وآخرُه عِتْقٌ مِن النَّار. رُوِي هذا عن النبيِّ ﷺ، من حديث سلمان الفارسي. خرَّجه ابنُ خُزَيمة في «صحيحه»[3].

ورُوي عنه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، خرَّجه ابنُ أبي الدنيا وغيره.

والشهرُ كلُّه شَهْرُ رَحْمَةٍ ومغفرةٍ وعِتْقٍ، ولهذا في الحديث الصحيح: أنَّه تُفتَحُ فيه أبوابُ الرَّحمة.

وفي الترمذي[4] وغيرِه: «إنَّ لله عتقاءَ مِن النَّارِ، وذلك في كُلِّ ليلةٍ». ولكنَّ الأغلبَ على أوَّله الرحمةُ، وهي للمحسنين المتقين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[5]. وقال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ فسأَكْتُبُها

---

[1] في آ: «لم يغفر له». [2] في ب، ط: «ترحَّل شهر الصبر وا لهفاه...». [3] قطعة من حديث رواه ابن خزيمة في «صحيحه» ٣/١٩١ رقم (١٨٨٧) في الصيام: باب فضائل شهر رمضان إن صح الخبر. وإسناده ضعيف؛ لضعف علي بن زيد بن جدعان. قال البنا في «الفتح الرباني» ٩/٢٣٣: رواه ابن خزيمة في صحيحه، ثم قال: إن صحَّ الخبر، ورواه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب. [4] جزء من حديث رواه الترمذي رقم (٦٨٢) في الصوم: باب ما جاء في فضل شهر رمضان. وفي حديث صحيح أخرجه ابن ماجه رقم (١٦٤٣) في الصيام: باب ما جاء في فضل شهر رمضان، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله عند كل فطر عتقاء، وذلك في كل ليلة». وفي مسند أحمد ٢/٢٥٤ عن أبي هريرة أو أبي سعيد، بإسناد صحيح: «إن لله عتقاء في كل يوم وليلة، لكل عبد منهم دعوة مستجابة». [5] سورة الأعراف الآية ٥٦.

لِلَّذين يتَّقون ويؤتون الزَّكاة ﴾[1]. فيفاضُ على المتَّقين في أوَّلِ الشَّهْرِ خِلَعُ الرَّحمةِ والرِّضوانِ، ويُعامَلُ أهلُ الإحسان بالفضل والإحسان. وأمَّا أوسَطُ الشهر، فالأغلبُ عليه المغفِرَةُ، فيُغفَرُ فيه للصَّائمين وإن ارتكَبُوا بعضَ الذنوبِ الصغائر فلا يمنعهم ذلك من المغفرة، كما قال الله تعالى: ﴿ وإنَّ ربَّكَ لذو مَغْفِرَةٍ للنَّاسِ على ظُلْمِهِم ﴾[2].

وأمَّا آخِرُ الشهر فيُعتقُ فيه من النار مَن أوبقَتْه[3] الأوزار، واستوجَب النار بالذنوب الكبار.

وفي حديث ابن عباسٍ المرفوع: «لله في كُلِّ ليلةٍ في شهر رمضان عند الإفطار ألفُ ألفُ عتيقٍ من النار، فإذا[4] كان ليلةُ الجمعة أو يوم الجمعة، أعتق في كل ساعةٍ فيها ألف ألف عتيق من النار، كلُّهم قد استوجَبُوا العذاب[5]، فإذا كان آخر ليلةٍ من شهر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بعدد ما أعتَقَ مِن أول الشهر إلى آخِرِه. خرَّجه سلمة بن شبيب وغيرُه. وإنما كان يوم الفطر من رمضان عيداً لجميع الأمة، لأنَّه يعتَقُ فيه أهلُ الكبائر من الصَّائمين مِن النار، فَيَلْتَحق فيه المذنبون بالأبرار. كما أنَّ يوم النَّحر هو العيدُ الأكبر؛ لأنَّ قبلَه يومَ عَرَفَةَ، وهو اليوم الذي لا يُرَى في يومٍ من الدنيا أكثَرُ عتقاً من النار منه، فمن أُعتِقَ من النَّار في اليومين فله يومُ عيدٍ، ومَن فاته العِتْقُ في اليومين فله يومُ وعيدٍ. [أنشد الشبلي][6]:

ليس عيدُ المحبِّ قَصْدَ المصلَّى ... وانتظارَ الأميرِ والسُّلطانِ
إنَّما العيدُ أن تكون لَدَى اللَّهِ كَريماً مُقَرَّباً في أمانِ

ورؤي بعضُ العارفين ليلةَ عيدٍ في فلاةٍ يبكي على نفسِه وينشِدُ:

بِحُرْمَةِ غُرْبَتي كم ذا الصُّدُودُ ... أَلَا تعطِف عليَّ أَلَا تَجُودُ
سُرورُ العيدِ قد عَمَّ النَّواحِي ... وَحُزْنِي في آزْدِيادٍ لا يَبِيدُ
فإنْ كنْتُ آقْتَرَفْتُ خلالَ سُوءٍ ... فَعُذْرِي في الهَوَى أن لا أعودُ

---

[1] سورة الأعراف الآية ١٥٦. [2] سورة الرعد الآية ٦. [3] أوبقته: أهلكته. [4] حتى قوله: «من النار» ساقط في ط. [5] في ب، ط: «النار». [6] زيادة من آ، ش، ع.

لمَّا كانت المغفرةُ والعِتْقُ من النار كل منهما مرتّباً على صيام رمضانَ وقيامِه، أمر اللهُ سبحانه وتعالى عندَ إكمال العِدَّةِ بتكبيره وشكرِه، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ على ما هَدَاكُمْ ولعلَّكُم تَشْكُرون﴾[1]، فشُكْرُ مَن أَنعَمَ على عباده بتوفِيقِهم للصِّيام، وإعانتهم عليه، ومغفرته لهم به، وعتقِهم من النَّار، أن يذكُروه ويشكروه ويتَّقوه حقَّ تُقَاتِهِ. وقد فسَّر ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه تقواه حقَّ تُقاتِه بأنْ يطاعَ فلا يُعْصَى، ويذكَرَ فلا يُنْسَى، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر. فيا أربابَ الذُّنوب العظيمة! الغنيمةَ الغنيمةَ في هذه الأيام الكريمة؛ فما منها عوض ولا لها قيمة، فكم[2] يعتق فيها من النَّار من ذي جريرة وجريمة، فمن أعتق فيها من النَّار فقد فاز بالجائزة العميمة[3] والمنحة الجسيمة.

يا من أعتقَهُ مولاهُ مِن النَّار! إيَّاك أن تعودَ بعد أن صِرْتَ حُرًّا إلى رِقِّ الأوزار. أيبعدُكَ مولاك عن النار وأنت تتقرَّبُ منها؟ وينقذُكَ منها وأنتَ توقِعُ نفسَكَ فيها ولا تحيد عنها؟!

وإنَّ آمْرَءاً ينجُو مِن النَّار بعدَما ... تزوَّدَ مِن أعمالِها لَسَعيدُ

إن كانت الرَّحمة للمحسنين ... فالمسيء لا ييأسُ منها، وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين فالظَّالم لنفسه غيرُ محجوب عنها.

إن كان عَفْوُك لا يرجُوه ذو خطإٍ ... فمن يَجُودُ على العاصِين بالكَرَمِ

غيره:

إن كان لا يرجُوكَ إلَّا مُحْسِنٌ ... فمن الذي يَرْجُو ويَدْعُو المُذْنِبُ

[غيره:

لم لا يُرْجَى العَفْوُ من رَبِّنا ... وكيفَ لا يطمَعُ في حِلْمِهِ

---

[1] سورة البقرة الآية ١٨٥. [2] حتى قوله: «وجريمة» ساقط في ط. [3] في ش، ط: «العظيمة».

وفي الصحيحين[1] أتى إنه بعبدِهِ أَرْحَمُ من أُمِّه][2]

﴿ قُلْ يا عبادِيَ الَّذين أَسْرَفُوا على أنفُسِهم لا تقنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً ﴾[3]. فيا أيُّها العاصي ـ وكلُّنا ذلك ـ لا تقنَطْ مِن رحمةِ الله لسوء أعمالِك، فكم يُعتَقُ مِن النار في هذه الأيام مِن أمثالك. فأحْسِن الظَّنَّ بمولاك وتُبْ إليه؛ فإنَّه لا يهلك على الله إلاَّ[4] هالك.

إذا أوجَعَتْكَ الذُّنوبُ فداوِها بِرَفْعِ يَدٍ في اللَّيلِ واللَّيلُ مُظْلِمُ
ولا تقنَطَنْ مِن رَحْمَةِ اللهِ إنَّما قنوطُكَ منها مِن ذُنوبِك أعظَمُ
فرَحْمَتُه للمُحْسِنين كَرامةٌ ورَحْمَتُهُ للمذنبين تَكَرُّمُ

ينبغي لمن يرجُو العِتقَ في شهر رمضانَ مِن النار أن يأتيَ بأسبابٍ توجِبُ العِتْقَ مِن النَّارِ، وهي متيسِّرة في هذا الشهر. وكان أبو قلابَةَ يُعتِقُ في آخر الشهر جاريةً حسناءَ مزينة[5] يرجو بعتقِها العِتْقَ مِن النار. وفي حديث سلمان [الفارسي][6] المرفوع الذي في صحيح ابن خُزَيمة[7]: «مَن فَطَّر فيه صائماً كان عتقاً لَهُ مِن النار. ومَن خَفَّفَ فيه عن مملوكه كان له عِتْقاً من النار».

وفيه[7] أيضاً: «فاستكثروا فيه من أربع خصال: خَصلتين تُرْضُونَ بهما ربَّكم، وخَصلتين لا غناء بكم عنهما. فأمَّا الخَصلتان اللتان تُرضون بهما ربَّكم فشهادةُ أن لا إله إلاَّ الله، والاستغفار[8]. وأمَّا اللتان[9] لا غناء لكم عنهما، فتسألون الله الجنَّة، وتعوَّذون به من النار». فهذه الخصالُ الأربع المذكورة في هذا الحديث كُلٌّ منها سببٌ للعتق والمغفرة. **فأمَّا كلمةُ التوحيد**، فإنَّها تهدِمُ الذُّنوبَ وتمحُوها محواً، ولا تبقي ذنباً، ولا يسبقها عملٌ. وهي تعدِلُ عِتْقَ الرِّقاب الذي يوجِبُ العِتْقَ مِن النَّار.

---

[1] في ط: «وفي الصحيح أنَّه». [2] هذان البيتان زيادة من ب، ط، ولم يردا في آ، ش، ع. وقد نثرا في المطبوع. [3] سورة الزمر الآية ٥٣. [4] لفظ «إلا» لم يرد في ع، ط. [5] في آ: «مُرَبِّية». [6] زيادة في المطبوع. [7] ٣/١٩٢ رقم (١٨٨٧) في الصيام، وقد سبق تخريجه. [8] في صحيح ابن خزيمة: «وتستغفرونه». [9] في آ، ش: «التي».

ومَن أتى بها أربعَ مرارٍ: حين يُصبح وحين يُمسي، أعتَقَه اللهُ مِن النار، ومَن قالها خالصاً[1] من قلبه حرَّمه الله على النار.

وأمَّا كلمةُ الاستغفار، فمِن أعظَمِ أسبابِ المغفرة، فإنَّ الاستغفار دعاءٌ بالمغفرة، ودُعاءُ الصَّائم مستجابٌ في حالِ صيامِه، وعند فِطْره. وقد سَبَقَ حديثُ أبي هريرة المرفوع: وَيُغْفَرُ فيه ـ يعني شهرَ رمضان ـ إلَّا لمن أبى. قالوا: يا أبا هريرة! ومن أبى؟ قال: مَن أبى أن يستغفِرَ اللهَ عزَّ وجلَّ. قال الحسن: أكثِروا من الاستغفار، فإنَّكم لا تدرون متى تنزِلُ الرَّحمة. وقال لقمان لابنه: يا بُنيَّ! عَوِّدْ لسانَكَ الاستِغفار؛ فإنَّ لله ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيهنَّ سائلاً. وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِك ﴾[2]. وفي بعض الآثار: أنَّ إبليس قال: أهلكْتُ النَّاس بالذُّنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفارِ. والاستغفارُ خِتامُ الأعمال الصَّالحة كلِّها؛ فتختم به الصَّلاةُ والحجُّ وقيامُ الليل، ويختم به المجالسُ؛ فإنْ كانت ذكراً كان كالطابع عليها، وإن كانت لغواً كان كفَّارَةً لها، فكذلك ينبغي أن يُختم صيامُ رمضانَ بالاستغفار.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضانَ بالاستغفارِ والصَّدقةِ، صدقة الفطر؛ فإنَّ صَدَقَةَ الفِطْر طُهْرَةٌ للصَّائم من اللغو والرَّفَثِ. والاستغفارُ يُرقع ما تخرَّقَ من الصِّيام باللغو والرَّفَثِ؛ ولهذا قال بعضُ العلماء المتقدمين: إنَّ صدَقَة الفِطْر للصائم كسجدتي السَّهْو للصَّلاة. وقال عمر بن عبد العزيز في كتابه: قولوا كما قال أبوكم آدم: ﴿ ربَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإن لَّم تغفِرْ لنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين ﴾[3]، وقولوا كما قال نوح عليه السلام: ﴿ وإلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخاسِرين ﴾[4] وقولوا[5] كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ والَّذي أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتي يَوْمَ الدِّين ﴾[6]، وقولوا كما قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ

---

[1] في ط: «مخلصاً». [2] سورة محمد الآية ١٩. [3] سورة الأعراف الآية ٢٣. وبداية الآية: «قالا ربنا» أي قال آدم وزوجه. راجع الآيات ١٩ ـ ٢٢. [4] سورة هود الآية ٤٧. [5] حتى قوله: «يوم الدين» ساقط في ط. [6] سورة الشعراء الآية ٨٢.

نَفْسِي فاغْفِر لي ﴾[1]، وقولوا كما قال ذو النون عليه السلام: ﴿ لا إلَه إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمين ﴾[2].

ويُروى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: الغِيبةُ تخرِّقُ الصِّيام، والاستغفارُ يُرَقِّعُهُ؛ فمن استطاعَ منكم أن يجيء بصومٍ مُرقّعٍ فليفعل. وعن ابن المنكدر: معنى ذلك: الصيامُ جُنَّةٌ مِن النَّار ما لم يَخْرِقْها[3]، والكلامُ السيء يخرقُ هذه الجُنَّة، والاستغفارُ يرقِّعُ ما تخرَّقَ منها. فصيامُنا هذا يحتاج إلى استغفارٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، له شافعٌ. كم نخرِقُ صيامَنا بسهام الكلام، ثم نرقِّعُه وقد اتَّسع الخَرْقُ على الرَّاقع. كم نرفو خُرُوقَه بمخيط الحسنات، ثم نقطعه بحسامِ السيئات القاطع. كان بعضُ السَّلف إذا صلَّى صلاةً استغفَرَ مِن تقصيره فيها، كما يستغفر المذنبُ من ذنبه. إذا كان هذا حالُ المحسنين في عباداتهم، فكيف حالُ المسيئين مثلِنا في عباداتهم. ارحموا مَن حسناتُه سيئات، وطاعاته كلُّها غفلات.

أستغفِرُ الله من صِيامي ... طولَ زماني ومِن صَلاتي
صِيامُنا[4] كلُّه خُرُوقُ ... وصلاتُه[5] أيُّما صلاتي
مستيقظٌ في الدُّجَى ولكنْ ... أحسَنُ مِن يقظتِي سُبَاتي

وقريبٌ مِن هذا أمْرُ النبي عليه السلام لعائشة في ليلة القَدْرِ بسؤال العَفْوِ؛ فإنَّ المؤمن يجتهدُ في شهر رمضانَ في صيامِه وقيامِه، فإذا قرُبَ فراغُه وصادَفَ ليلَةَ القَدْرِ، لم يسألِ الله تعالى إلاَّ العَفْوَ، كالمسيء المقصِّر. كان صِلَةُ بن أشيم يحيي الليلَ، ثم يقول في دعائه في السَّحَر: اللهم، إنِّي أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يجترىء أن يسألك الجنَّةَ. كان مطرِّف يقولُ في دعائه: اللهم، ارْضَ عنَّا، فإن لم

---

[1] سورة القصص الآية ١٦. [2] سورة الأنبياء الآية ٨٧. [3] من حديث أخرجه النسائي ١٦٧/٤، ١٦٨ في الصيام: باب فضل الصيام عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الصوم جُنَّة، ما لم يَخْرِقْها». ورواه الدارمي ١٥/٢، وقال: ما لم يخرقها، يعني بالغيبة، وهو حديث حسن. [4] في آ: «صيامي»، وفي ب: «صوم ترى»، وفي ط: «يوم يرى»، وأثبت ما جاء في ش، ع. [5] في ب، ط: لاته»، وفي آ: «وصلاة».

ترضَ عنًّا فاعْفُ عنَّا. قال يحيى بن معاذ: ليس بعارفٍ مَن لم يكُن غايةُ أملِه من الله العَفْوَ.

إنْ كُنْتُ لا أصلُحُ لِلْقُرْبِ فشأنُكُم عَفْوٌ عن الذَّنْبِ

أنفَعُ الاستغفار ما قارنَتْهُ التَّوْبَةُ، وهي حَلُّ عُقدةِ الإصرار[1]، فمن استغفر بلسانِه وقلبُه على المعصية معقودٌ، وعزمُه أن يرجعَ إلى المعاصي بعدَ الشهر ويعُود، فَصَوْمُه عليه مردود، وبابُ القَبول عنه مسدود. قال كعبٌ: من صَامَ رمضانَ وهو يحدِّثُ نفسَه أنَّه إذا أفطر بعد رمضان أن لا يعصي الله، دَخَلَ الجنَّة بغير مسألةٍ ولا حسابٍ. ومَن صام رَمضانَ وهو يحدِّثُ نفسَه أنَّه إذا أفطر بعدَ رمضان عصَى ربَّه، فصيامُه عليه مردود. وخرَّجَه سلمة[2] بن شبيب.

ولولا التُّقَى ثمَّ النُّهَى خَشْيَةَ الرَّدَى لعاصيت في وقت الصِّبا كُلَّ زاجر[3]
قَضَى ما قَضَى فيما مَضَى ثم لا تُرى لَهُ عَوْدَةٌ أُخْرَى اللَّيالي الغَوابر[4]

في سنن أبي داود[5] وغيرِه عن أبي بَكْرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لا يقولَنَّ أحدُكم: صُمْتُ رَمضانَ كُلَّه، ولا قُمْتُ رَمَضانَ كُلَّه». قال أبو بكرة: فلا أدري، أَكَرِهَ التَّزكيةَ أم لا بُدَّ من غَفْلَةٍ.

أين من كان إذا صام صانَ الصِّيامَ، وإذا قام استقام في القيام؟ أحسَنوا[6] الإسلام ثم رحلوا بسلام، ما بقي إلَّا مَن إذا صام افتخر بصيامه وصال، وإذا قام أعجب بقيامه، وقال: كم بين خَليٍّ وشَجِيٍّ، وواجِدٍ وفاقِدٍ، وكاتمٍ ومبدي. وأمَّا سؤالُ الجنَّة والاستعاذة مِن النار فمن أهم الدعاء، وقد قال النبي ﷺ: «حولَهما نُدَنْدِنُ»[7]،

---

[1] أي الإصرار على الذنب. [2] في ش، ط: «مسلمة». وهو سَلَمة بن شبيب النيسابوري، وقد سبقت ترجمته. [3] في ط: «في وقت الصبا كل راجب». [4] في ط: «الغوايب». [5] أخرجه أبو داود رقم (٢٤١٥) في الصوم: باب من يقول صمت رمضان كله، والنسائي ٤/١٣٠ في الصيام: باب الرخصة في أن يقال لشهر رمضان: رمضان، وفيه عنعنة الحسن البصري. [6] في ط: «أحسِنوا الإسلام ثم ارحلوا». [7] جزء من حديث أخرجه أبو داود رقم (٧٩٢) و(٧٩٣) في الصلاة: باب في تخفيف الصلاة؛ عن أبي صالح رحمه الله، عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال لرجلٍ: =

فالصَّائم يُرجَى استجابةُ دعائه، فينبغي ألَّا يدعُوَ إلَّا بأهم الأمور. قال أبو مسلم[1]: ما عرضت لي دعوةٌ إلَّا صرفتها إلى الاستعاذة من النار، وقال ﴿ لا يَسْتَوِي أصحابُ النَّارِ وأَصْحابُ الجنَّة أصحابُ الجنَّةِ هُمُ الفائزون ﴾[2].

في الحديث: [اطلبوا الخيرَ دهركُم كُلَّه و][3] تعرَّضوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ رَبِّكُم؛ فإنَّ لله نَفَحاتٍ مِن رَحْمَتِه يُصِيبُ بها من يَشاء من عِباده، [وسلوا الله أن يسْتُرَ عوراتكم وأن يؤمِّن روعاتكم][3]، فمن أصابته سعِدَ سعادَةً لا يشقَى بعدَها أبداً، فمن أعظم نفحاته مصادفةُ ساعةِ إجابةٍ يسأل فيها العبدُ الجنَّةَ والنَّجاةَ من النَّار، فيُجاب سؤالُه، فيفوزُ بسعادَة الأبَدِ. قال الله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجنَّةَ فَقَدْ فاز ﴾[4]، وقال: ﴿ فأمَّا الَّذين شَقُوا ففي النَّار لَهُمْ فيها زَفِيرٌ وشَهِيقٌ ﴾[5] إلى قوله: ﴿ وأمَّا الَّذين سُعِدُوا فَفي الجنَّة ﴾[6].

ليس السَّعيدُ الذي دُنياهُ تُسْعِدُهُ ... إنَّ السَّعيدَ الَّذي يَنْجُو من النَّارِ

عبادَ الله! إنَّ شهرَ رمضانَ قد عَزَمَ على الرَّحيل، ولم يَبْقَ منه إلَّا القليل. فمن منكم أحسَنَ فيه فعليه التمام، ومن كان فَرَّطَ فليختمْهُ بالحُسْنَى؛ فالعملُ بالختام. فاستمتعوا[7] منه فيما بقي من الليالي اليسيرة والأيام، واستودعُوه عملاً صالحاً يشهَدُ لكم به عند الملك العلَّام، وودِّعُوه عند فراقه بأزْكَى تحيَّةٍ وسَلام.

= كيف تقولُ في الصلاة؟ قال: أتشهَّدُ، ثم أقول: اللهم إني أسألك الجنَّة، وأعوذ بك من النار، أَمَا إني لا أحسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَدَنْدَنَةَ معاذ، فقال رسول الله ﷺ: حول ذلك نُدَنْدِنُ أنا ومعاذ. ورواه أيضاً الإمام أحمد في «مسنده» ٣/٤٧٤، وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رقم (٩١٠) في إقامة الصلاة: باب ما يقال في التشهد والصلاة على النبي ﷺ، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

[1] هو أبو مسلم الخولاني، عبد الله بن ثُوَب، تابعي فقيه عابد، زاهد، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ، ولم يره، توفي بدمشق، وقبره بداريّا سنة ٦٢ هـ. له ترجمة مفصلة في تاريخ دمشق ص ٤٨٣ ـ ٥٢٥، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق. [2] سورة الحشر الآية ٢٠، وقد تأخرت قليلاً عن آ، ش، ع.
[3] تكملة من نسخة آ. والحديث رواه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» رقم (٢٧)، عن أبي هريرة. ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة أيضاً. ورواه الحكيم الترمذي، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس، وهو حديث ضعيف. [4] سورة آل عمران الآية ١٨٥. [5] سورة هود الآية ١٠٦.
[6] الآية ١٠٨ من سورة هود. [7] في ط: «فاستغنموا».

سَلامٌ مِنَ الرَّحمٰنِ كُلَّ أَوَانِ على خيرِ شَهْرٍ قَدْ مَضَى وزَمَانِ
سَلامٌ علَى شَهْرِ الصِّيام فإنَّه أمانٌ مِن الرحمٰن أيُّ[1] أمانِ
لئِنْ فَنِيَتْ أيَّامُكَ الغُرُّ بَغْتَةً فما الحزنُ من قلبي عليك بفانِ

لقد ذهبَتْ أيَّامُهُ وما أطعتُم، وكتبت عليكم فيه آثامُه وما أضعتم، وكأنَّكم بالمشمّرين فيه وقد وصلوا وانقطَعْتُم، أترى ما هذا التوبيخُ لكم أو ما سَمِعْتُم؟!

ما ضَاعَ من أيَّامِنا هَلْ يُغْرَمُ[2] هَيْهاتَ والأزمانُ كيفَ تُقوَّمُ
يومٌ بأرواحٍ يُباعُ ويُشْتَرَى وأخُوهُ[3] ليسَ يُسَامُ فيه دِرْهَمُ

قلوبُ المتَّقين إلى هذا الشهر تحِنُّ، ومن ألم فراقه تئنّ.

دهاكَ الفِرَاقُ فما تَصْنَعُ أَتَصْبِرُ للبِينِ أمْ تَجْزَعُ
إذا كُنْتَ تبكِي وهُمْ جِيرَةٌ فَكَيْفَ تكونُ إذا ودَّعُوا

كيف لا يجري للمؤمن على فراقِه دموعٌ، وهو لا يدرِي هل بقي لَهُ في عمره إليه رجوع.

تذكَّرْتُ أيَّاماً مَضَتْ وَلَيَالِيا خَلَتْ فَجَرَتْ مِن ذكرِهِنَّ دُمُوعُ
أَلَا هَل لَها يوماً مِن الدَّهْرِ عَوْدَةٌ وهَلْ لي إلى وقتِ[4] الوِصَال رُجُوعُ
وهَلْ بَعْدَ إعْراضِ الحبيبِ تَوَاصلٌ وهَلْ لبدورٍ قد أَفَلْنَ طُلُوعُ

أين حَرَقُ المجتهدين في نهاره؟ أين قَلَقُ المتهجِّدين في أسحاره؟

اسْمَعْ[5] أنينَ العاشقينَ إن اسْتطعتَ له سَمَاعا
راحَ الحبيبُ فشيَّعَتْهُ مدامعي تهمي سِراعا
لو كلّف الجبل الأصمّ فِراق إلفٍ ما استطاعا

إذا كان هذا جَزَعُ مَن ربح فيه، فكيفَ حالُ مَن خسِر في أيَّامِهِ ولياليه؟ ماذا ينفَعُ

---

[1] في ط: «كُلّ أمانٍ». [2] في ش: «هل يقوم». [3] في ش: «وآخر»، وفي ع: «وأخوه بخس لا يساوي درهم». [4] في ط: «يوم». [5] من هنا وحتى قوله: «من ربح فيه» ساقط في ب، ط.

المفرطَ فيه بكاؤه، وقد عظُمَتْ فيه مصيبَتُهُ وجَلَّ عزاؤه؟ كم نُصِحَ المِسْكينُ فما قبِلَ النُّصْحَ! كم دُعِي إلى المصالحة فما أجابَ إلى الصُّلْحِ! كم شاهد الواصلين فيه وهو متباعد! كم مَرَّتْ به زمر السَّائرين وهو قاعد، حتى إذا ضاقَ به الوقتُ وحَاق به المقْتُ[1]، نَدِمَ على التفريط حين لا ينفَعُ النَّدم، وطلَبَ الاستدراكَ في وقتِ العَدَم.

أتتركُ مَن تُحبُّ وأنْتَ جارُ ... وتطلبُهُم إذا[2] بَعُدَ المَزَارُ
وتبكي بَعْدَ نأْيِهمُ اشتياقاً ... وتسألُ في المنازِلِ أينَ ساروا
تركتَ سؤالَهم وَهُمُ حُضُورٌ ... وتَرْجُو أن تُخَبِّرَكَ الدِّيارُ
فنفسَكَ لُمْ ولا تَلُمِ المَطَايا ... وَمُتْ كَمَداً فليسَ لَكَ اعْتِذارُ

يا شهرَ رمضانَ ترفَّقْ، دموعُ المحبِّين تُدْفَقْ، قلوبُهم من ألم الفراق تَشَقَّقْ، عَسَى وقفةٌ للوداع تطفىء من نار الشوق ما أحرق، عَسَى ساعةُ تَوْبةٍ وإقلاعٍ ترفو من الصِّيام كُلَّ ما تخرَّقْ، عَسَى منقطِعٌ عن رَكْبِ المقبولين يَلحقْ، عَسَى [أسيرُ الأوزار يُطلَقْ، عسى][3] من استوجب النار يُعتقْ، [عسى رحمة المولى لها العاصي يُوفَّقْ][4].

عَسَى وعَسَى مِن قَبْلِ وَقْتِ التَّفَرُّقِ ... إلى كُلِّ ما ترجُو مِن الخَيْرِ تَرْتَقي[5]
فيجبر مكسور ويقبَلُ تائبٌ ... ويعتق خَطَّاء ويَسْعَدُ مَن شقِي[6]

* * *

[1] في ط: «وخاف المقت»، وهو تحريف. [2] في ب، ط: «وقد». [3] ما بين قوسين لم يرد في آ، وورد في ع مؤخراً. [4] زيادة مستدركة في هامش ع. [5] في ط: «تلتقي». [6] روايته في آ، ش:

فيقبل مردود ويقبل تائب ... ويُجْبَر مكسور ويسعد من شقي